

دير القديس أنبا مقار
برية شهييت

أُسُس الحياة المسيحية

الأب متى المسكين

كتاب: أسس الحياة المسيحية.
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: ٢٠١٢.
الطبعة الثانية: ٢٠١٥
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٣٠٤ / ٢٠١١.
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-240-278-5.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

متى المسكين ١٩١٩-٢٠٠٦
أسس الحياة المسيحية / متى المسكين - ط ٠١ -
وادي النطرون: بركة شيهيت، دير القديس أنبا مقار، ٢٠١١
٩٦ ص ؛ ٠ سم.
تدمك ٠ ٢٧٥ ٢٤٠ ٩٧٧
١- المسيحية ٢٧٠
أ. العنوان

المحتويات

صفحة

- ١ - وصايا السلوك ٥
- ٢ - القدرات الكامنة في النفس ٣٠
- ٣ - كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ ٥٥

وصايا السلوك^(١)

بسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد، آمين.

« ١ وَقَالَ لَهُمْ أَيْضاً مَثَلاً فِي أَلَّهُ يَتَّبِعِي أَنْ يُصَلِّي كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلِّ قَائِلاً: ٢ "كَانَ فِي مَدِينَةٍ قَاضٍ لَا يَخَافُ اللَّهَ وَلَا يَهَابُ إِنْسَاناً. ٣ وَكَانَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَرْمَلَةٌ. وَكَانَتْ تَأْتِي إِلَيْهِ قَائِلَةً: أَتُصَفِّنِي مِنْ خَصْمِي. ٤ وَكَانَ لَا يَشَاءُ إِلَى زَمَانٍ. وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: وَإِنْ كُنْتُ لَا أَخَافُ اللَّهَ وَلَا أَهَابُ إِنْسَاناً ٥ فَإِنِّي لِأَجْلِ أَنْ هَذِهِ الْأَرْمَلَةُ تُزْعِجَنِي أَنْصِفُهَا لئَلَّا تَأْتِي دَائِماً فَتَقْمَعَنِي". ٦ وَقَالَ الرَّبُّ: "اسْمَعُوا مَا يَقُولُ قَاضِي الظُّلَمِ. ٧ أَفَلَا يُنْصَفُ اللَّهُ مُخْتَارِيهِ الصَّارِحِينَ إِلَيْهِ نَهَاراً وَلَيْلاً وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ؟ ٨ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعاً! وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ أَلَعَلَّهُ يَجِدُ الْإِيمَانَ عَلَى الْأَرْضِ؟".

٩ وَقَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بَأَنْفُسِهِمْ أَلَّهُمْ أَبْرَارٌ وَيَحْتَقِرُونَ الْآخَرِينَ هَذَا الْمَثَلُ: ١٠ "إِنْسَانَانِ صَعَدَا إِلَى الْمَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا وَاحِدٌ قَرَيْسِي وَالْآخَرُ عَشَّارٌ. ١١ أَمَّا الْقَرَيْسِيُّ فَوَقَّفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هَكَذَا: اللَّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الرُّثَاةَ وَلَا مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ. ١٢ أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ وَأَعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتْنِيهِ. ١٣ وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَّفَ مِنْ بَعِيدٍ لَا يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ

(١) عظة ألقاها الأب متى المسكين على الرهبان يوم ٧ / ١١ / ١٩٨٢.

قَائِلًا: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئُ. ١٤ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ هَذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبْرَرًا
دُونَ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْفَعُ.

١٥ فَقَدِمُوا إِلَيْهِ الْأَطْفَالُ أَيْضًا لِيَلْمَسَهُمْ فَلَمَّا رَأَاهُم التَّلَامِيذُ انْتَهَرُوهُمْ.

١٦ أَمَّا يَسُوعُ فَدَعَاهُمْ وَقَالَ: "دَعُوا الْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ لِأَنَّ
لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتَ اللَّهِ. ١٧ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ
مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ."

١٨ وَسَأَلَهُ رَئِيسٌ: "أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرْثَ الْحَيَاةَ
الْأَبَدِيَّةَ؟" ١٩ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: "لَمَّاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا
إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ. ٢٠ أَأَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ.
لَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ. أَكْرَمَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ." ٢١ فَقَالَ: "هَذِهِ كُلُّهَا حَفَظْتُهَا مِنْذُ
حَدِّاثِي." ٢٢ فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: "يُعْوزُكَ أَيْضًا شَيْءٌ. بَعْ كُلَّ
مَا لَكَ وَوَرِّعْ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتَّبِعْنِي."
٢٣ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ حَزَنَ لِأَنَّهُ كَانَ غَنِيًّا جَدًّا. ٢٤ فَلَمَّا رَأَاهُ يَسُوعُ قَدُ
حَزَنَ قَالَ: "مَا أَغْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ! ٢٥ لِأَنَّ
دُخُولَ جَمَلٍ مِنْ ثَقَبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ".
٢٦ فَقَالَ الَّذِينَ سَمِعُوا: "فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟" ٢٧ فَقَالَ: "غَيْرُ
الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ."

٢٨ فَقَالَ بَطْرُسُ: "هَآ نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ." ٢٩ فَقَالَ
لَهُمْ: "الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ وَالِدَيْنِ أَوْ إِخْوَةً أَوْ امْرَأَةً
أَوْ أَوْلَادًا مِنْ أَجْلِ مَلَكُوتِ اللَّهِ ٣٠ إِلَّا وَيَأْخُذُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً وَفِي الدَّهْرِ الْآتِي الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ" (لو ١٨: ١-٣٠).



لقد قرأتُ عليكم هذا الأصحاح الثامن عشر من إنجيل القديس لوقا،
لا لكي أشرحه، ولكن ليكون خلفية للكلام الذي سأحدث به إليكم.
وسوف أضع نقاطاً مُعَيَّنة أمام أعينكم، لكي تُطبّقوا هذه النقاط على ما
٦ - أسس الحياة المسيحية

سَيُقَالُ فيما بعد.

المعيار الأول للحياة الرهبانية:

«ينبغي أن يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلَّ»:

في الحقيقة أنا اخترتُ هذا الأصحاح، لأن به وصايا مناسبة للراهب الذي يريد أن يحيا بحسب الإنجيل.

❖ كلمة «ينبغي» هنا تأتي بمعنى «الحتمية». فكلمة «ينبغي» في كلام المسيح تعني «يلزم». وهي تأتي هنا ككلمة مُخَفِّفَة، وفي بعض اللغات الأخرى تعني «يلزم بشدة». وهذا ما ينبغي أن يوضع أمام كل واحد منّا.

❖ «ينبغي أن يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلَّ». كلمة «ينبغي» - كما قلتُ سابقاً - تحمل تأكيداً من المسيح على الالتزام. أما «يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ» فسوف نرى معناها بالنسبة لحياتنا، وكذلك كلمة «وَلَا يُمَلَّ» سنرى مدى تطبيقها على سلوكنا.

ويستطرد الرب يسوع قائلاً: «أفلا يُنصف الله مختاريه، الصارخين إليه نهاراً وليلاً، وهو مُتَمَهِّلٌ عليهم؟». في الحقيقة هذا ردُّ بديع من المسيح على ما قاله سابقاً: «ينبغي أن يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلَّ»، فيه وزن روحي وكذلك وزن موسيقي بديع.

«الصارخين إليه نهاراً وليلاً، وهو متهمِّلٌ عليهم؟». لقد بدأ الرب يسوع كلامه بـ «ينبغي أن يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلَّ»، ثم بعد ذلك استطرد قائلاً: «أفلا يُنصف الله مختاريه...». الإنصاف هنا حتمي أيضاً. لماذا؟ لأنه ينبغي إمكانية عدم حدوثه، بمعنى «مستحيل» عدم حدوثه!

وصايا السلوك - ٧

❖ «أَفْلا يُنْصَفُ اللهُ...». فإن كان القاضي الظالم الذي كان لا يشاء إلى زمان أن يسمع شكوى الأرملة قد قال في نفسه: «وإن كنتُ لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً، فإني لأجل أن هذه الأرملة تُزعجني، أنصفها، لئلا تأتي دائماً فتَقْمَعَنِي»، قد أرفق العدل بالحكمة، كحكمة بشرية، لكي يُريح نفسه من إلحاح الأرملة؛ فما بالنا بالله!!

«أَفْلا يُنْصَفُ اللهُ مختاربه الصارخين إليه هماراً وليلاً». هنا حتمية في إنصاف الله مختاربه الصارخين إليه هماراً وليلاً. على نفس السياق: «ينبغي أن يُصَلِّيَ كل حين ولا يُمَلَّ». لا بد أن تُوضع «كل حين» بالتوازي مع «... هماراً وليلاً».

وكذلك «ولا يُمَلَّ» قابلهما المسيح بردّ في غاية الإبداع: «وهو مُتمهِّلٌ عليهم»! فكلمة «لا يُمَلَّ» تعني الاستمرارية في الصلاة، ولكن إذا أصابك الملل، فيكون هذا بمثابة انقطاع التيار الكهربائي، أي عدم الاستفادة من تمهّل الله أو انفتاح أذنيه على صلاتك. فإله بكل تأكيد يُنصت لصلاتك، ولكنه متمهِّل!

فهنا المقابل الروحي لكلمة «لا يُمَلَّ»، هو عبارة المسيح: «وهو متمهِّلٌ عليهم». وكثيراً ما يحدث أن يُصَلِّيَ الراهب مثلاً ويُطِيل في صلاته لأيام عديدة، ثم لا يجد استجابة لهذه الصلوات، وحينئذ يبتدئ أن يُصيبه الملل. وعندما يُدركه الملل، يفقد تلقائياً تمهّل الله: «وهو متمهِّلٌ عليهم»، أي أن الله سامع الصلاة ولكنه متمهِّل إلى حين.

هذا هو المعيار الأول للحياة الرهبانية.

+ «وقال لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار، ويحتقرون الآخرين».

ما قاله المسيح في هذه الآية يُعتبر نقيضة تلتصق بالشخص الذي يُزكي نفسه على أخيه، بمعنى أنه يرى نفسه أفضل من أخيه. ففي اللحظة التي تظنُّ فيها أنك أفضل من أخيك، تصير في الحال أقل منه، وتكون - دون أن تدري - قد رفعته فوقك حتى ولو كان إنساناً متوانياً. لأن كونك تدين أخاك، تكون بفعلتك هذه تُزكيه هو، وتدين نفسك.

إدانة الآخرين نقيضة مُريعة في الحياة الرهبانية. فالإنسان الذي يُزكي نفسه، في ضميره، في مخيلته، وفي تصوُّره أنه أفضل من هذا وأحسن من ذاك؛ يكون من نتيجة هذا أنه يصير أقل من هذا وأدنى من ذاك. وهكذا نجد أن العشَّار الخاطئ صار أفضل من الفريسي البار في عيني نفسه: «إن هذا (العشَّار) نزل إلى بيته مُبرراً دون ذاك (الفريسي)».

❖ ولنأخذ فكرة بسيطة عن "الفريسي". فالفريسي هو مَنْ يُداوم على دراسة الناموس لمدة تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ سنة، ويُداوم على حضور العبادات في الهيكل وممارستها بتدقيق. وكلمة "فريسي" تعني "معتزل" مثل الراهب، ولكنه قد يكون متزوجاً أو غير متزوج. فإذا كان غير متزوج يكون ضمن "الأسنين" معتزلاً الناس، أما إذا كان متزوجاً فيكون "فريسياً" يحيا وسط الناس. ولكن يوجد فريسيون غير متزوجين ولكنهم يعيشون وسط الناس. إن كلمة "فريسي" في الأصل هي "المعتزل"، فيكون له نظام قائم بذاته، مُفرز عن المجتمع، يحيا بمفرده، ويأكل بمفرده، ويصلي بمفرده؛ ولذلك فهو مُزكى من الجمع ومن جميع اليهود.

❖ أما العشَّار فمعروف أنه رجل خاطئ، وهو مثبوذ من المجتمع، كما

ذُكر في قصة زكَّا العَشَّار أنَّ الجمع تذرَّ عندما دخل الرب يسوع بيت زكَّا قائلين: «إنه دخل لبيت عند رجل خاطئ» (لو ١٩ : ٧). لكن هذا العَشَّار المنبوذ من الجميع صار في نظر الله أفضل من الفريسي المُدقق الصائم المُصلِّي الذي يُتقن الصلوات والتسبيحات وكل شيء.

وتطبيق هذا علينا صعبٌ ومرٌّ، لأننا إن لم نكن على مستوى العَشَّار الذي قرع على صدره قائلاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ»، فلا فائدة تُرجى من جهد يُبذل، أو صلاة تدوم، أو صراخ الليل والنهار. معنى هذا: إنك إن صليت كل حين ولم تَمَلْ، ثم بعد ذلك زكَّيت نفسك؛ فلن تحني شيئاً من دوام صلاتك أو استمرار جهادك المضني. فإذا أردت تطبيق آيات الإنجيل ووصية المسيح في الصلاة، لا بد أن تكون على مستوى العَشَّار سواء أمام الله أو أمام ضميرك.

❖ قال أحد الرهبان لأحد الشيوخ: ”قُلْ لي كلمة، يا أبي، لأحيا بها“. فأجابه الشيخ: ”ضع نفسك تحت الخليقة كلها، وأنت تحيا!“



المعيار الثاني للحياة الرهبانية:

«لأنَّ كلَّ مَنْ يرفع نفسه يتضع، ومَنْ يضع نفسه يرتفع»:

هنا وَضَعَ العَشَّار، في الحقيقة، هو ناموس الرهبة. هذا هو المعيار الحقيقي للحياة الرهبانية، أن يكون الإنسان على مستوى العَشَّار، في سلوكه مع نفسه ومع الله ومع الآخرين كخاطئ. ولكن في اللحظة التي يظنُّ فيها أنه أفضل من غيره، فإنه لا يجني شيئاً من جهاده أو من صلاته. فالفريسي بالرغم من صلواته، ومن صومه مرتين في الأسبوع، وتقديمه

عشور كل ما يقتنيه؛ إلا أن صلواته وأصوامه وعشوره لم تُقبل أمام الله بسبب تزكيته لنفسه. أما العشار الذي وقف من بعيد وهو لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع على صدره قائلاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ»، فإنه «نزل إلى بيته مُبرراً دون ذاك (الفريسي)»، بالرغم من أنه لا يملك شيئاً، ولا قدّم أصوماً أو صلوات أو عشوراً، لكنه اعترف أمام الله بأنه خاطئ غير مستحق.

❖ وأخى الرب يسوع كلامه عن الفريسي والعشار قائلاً: «لأن كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع». فالفريسي رفع نفسه وزكاه، فرفض من الله؛ بينما العشار وضع نفسه إلى الحضيض واعترف بأنه خاطئ غير مستحق، فرفع من قبل الرب.

هذا هو المعيار الثاني بعد: «ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل».



المعيار الثالث للحياة الرهبانية:

«من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله»:

+ «فقدّموا إليه الأطفال أيضاً ليلمسهم، فلما رآهم التلاميذ انتهروهم. أما يسوع فدعاهم وقال: "دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله. الحق أقول لكم: من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله».

لنتأمل كلام المسيح: «... لأن لمثل هؤلاء»، وليس "هؤلاء". معنى هذا ليس لأن الأولاد هم أطفالاً فإنهم سيدخلون ملكوت الله؛ ولكن ما قاله الرب: «لمثل هؤلاء»، وضّحها بعد ذلك قائلاً: «من لا يقبل

ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله».

❖ قبول ملكوت الله مثل ولد: أي في نظرة الولد البسيطة غير المعقدة لجميع الأمور، في تجميع كل القوى الوجدانية في طلب الشيء من كل القلب ومن كل الفكر ومن كل القدرة، في عدم الشهوة.

❖ ولتوضيح هذا، وكاختبار بسيط يمكن أن يُمارسه كل واحد. يمكنك وأنت راكع في الصلاة أن يكون لك قلب طفل وأنت تتكلم مع الله ببساطة وثقة في استجابته لصلاتك؛ فستشعر في الحال بمشاعر الطفولة تتجدد فيك، وأن الله قريب منك جداً، وتبتدى تفهم الأمور الروحية ببساطة.

إذن، أحياناً تقف أمام الله ولك وجدان طفل. وأحياناً أخرى تقف أمامه ويكون لك وجدان خاطئ تائب ونادم عن خطاياك. وأحياناً ثلاثة - وهذا اختبار جميل جداً - تقف أمام الله ولك مشاعر عذراء طاهرة، ترقع أمام الله بإحساس وجسد وقلب عذراوي. هذا الإحساس يُعطي دفعة قوية جداً في العلاقة بين الإنسان والله.

❖ فأرجو أن تختبروا هذه المشاعر التي لا مثيل لها:

- أن ترقع وتسجد أمام الله بوجدان طفل؛
- وأن ترقع صدرك وأنت لا ترفع عينيك إلى فوق بوجدان خاطئ؛
- وأن تُقدّم الجسد والنفس والحياة بمرمتها لله بوجدان عذراء.



المعيار الرابع للحياة الرهبانية:

«بغ كل ما لك... وتعال اتبعني»:

+ «وسأله رئيس قائلًا: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة

الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحداً صالحاً إلاً واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا: لا تَزْنِ، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأُمك. فقال: هذه كلها حفظتها منذ حدثني. فلما سمع يسوع ذلك قال له: يُعوزك أيضاً شيء: بَعِ كُلَّ مَا لَكَ ووزَّعْ على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني».

حَفَظَ هذه الوصايا، هو في الحقيقة، حَفَظَ الوصايا الرهبانية كلها: من صلوات، وأصوام، وحضور الكنيسة، والمطانيات، والطاعة للأب الروحي وكذلك للإخوة في العمل؛ أي طاعة الروح وطاعة الكنيسة وطاعة العمل.

عندما قال الشاب: «هذه كلها حفظتها منذ حدثني»، أجابه الرب يسوع قائلاً: «يُعوزك أيضاً شيء: بَعِ كُلَّ مَا لَكَ... وتعال اتبعني». هنا البَّيْعُ بالنسبة للإنسان - وأنا هنا أَتَكَلَّمُ عن الإنسان الروحاني أو الراهب - هو التجرُّد. وأصعب شيء في الحياة الروحية هو التجرُّد من كل شيء.

❖ القنْيَة ليس مفهومها فقط المقتنيات المادية، ولكن أيضاً ما يشتهيهِ الإنسان ليُضاف لحساب ذاته. أما التجرُّد، فهو تجرُّد من الذات أيضاً. لأن أخطر شعور ينتاب الإنسان ويُعْطِلُ مسيرته الروحية هو شعوره بذاته، أن تكون ذاته منتفخة، لها قنْيَات في داخلها متعددة. هذا الشعور إذا تَمَلَّكَ على الراهب، فإنه يجعله يَظُنُّ أن الدير الذي يحيا فيه لا يليق به وبإمكانياته ومواهبه، وكذلك أن مَنْ حوله لا يُقَدِّرون

إمكانياته ولا يُعظمون مواهبه، وهم جميعهم دونه في القامة وفي المستوى. آفة التقهقر في الحياة الرهبانية والتوقُّف عن النمو الروحي، أنَّ الذات تكون متضخمة: تتغذى على الكبرياء، تثفخ بالافتخار بالعمل والقدرات والإمكانات والحدِّق، وكذلك تتضخم باعتمادها على الباطل؛ فلا يَسعها حتى ولا ملكوت السموات، لأن الباب المؤدِّي إلى الملكوت بابٌ ضيق لا تستطيع الذات المتضخمة أن تدخل منه.

❖ فالتجرُّد في الحياة الرهبانية، أهمُّه هو التجرُّد من الذات نفسها، بمعنى أن يحيا الإنسان أمام الله كولدٍ وكخاطئٍ وكعذراءٍ عفيفة.

صورة العُشَّار - التي شرحناها سالفاً - هي صورة تجرُّدية، بلغت القمة في الحقيقة.

❖ "بع كل ما لك"، ليس فقط المال أو المقتنيات المادية، لأن هذه كلها أمرها يهون، ويمكن لكل إنسان - بشيء من الإصرار - أن يقدر عليها؛ أما الأصعب فهو أن يتجرَّد الإنسان من كبريائه، أن يُميت ذاته. وهذه الذات المتضخمة هي أكبر المعوِّقات التي تعوق الإنسان في مسيرته الروحية أو الرهبانية.

+ «فقال بطرس: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فقال لهم: الحقُّ أقول لكم: إنَّ ليس أحدٌ ترك بيتاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولاداً من أجل ملكوت الله، إلّا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية».

في الحقيقة، قد يظهر أمام الناس أحياناً، وأمام أنفسنا أحياناً أخرى،

أننا تركنا بيوتاً، أو والدين، أو إخوة؛ ولكننا في حقيقة الأمر ما زلنا في أحيان كثيرة مربوطين عاطفياً بكل مَنْ تركناهم بدعوى حبنا للرب. فالترُّك الفعلي هو من استطاع أن يترك كل شيء تركاً حقيقياً. والترُّك الحقيقي يستمدُّ قوته من إماتة الذات وإنكارها وجحدها.

فالذي يجحد ويُميت ذاته لا يشعر إطلاقاً أن له بيتاً أو أباً أو أمّاً أو إخوةً أو أهلاً... إلخ. أما إذا كانت الذات حيّة، فإنه يشعر أن كل هؤلاء الذين تركهم ما يزالون موجودين بالنسبة له، وما يزال هو مربوطاً بهم عاطفياً، مهما تركهم بالجسد.

فالإنسان الذي ترك موضعاً ما أو مكاناً ما وهو يشعر بحنين إلى هذا الموضع أو هذا المكان، فهذا معناه أنه لم ينفصل قط عن هذا الموضع أو لم ينفطم بعد عن هؤلاء الناس الذين تركهم. فالأهل والإخوة والأصدقاء الذين تركهم حبّاً في الرب ما يزالون داخل قلبه ومهيمنون على تفكيره، وهذا معناه أن الذات لم تزل حيّة بعد ومربوطة بكل هؤلاء الأهل.

هنا التُّرك: "تَرَكَ بيتاً" متلازماً أشد التلازم مع «بِعَ كل شيء... وتعالَ اتبعني». البيع هنا ليس قاصراً على المقتنيات، ولكن أول وأخطر تَرَكَ هو جَحْدُ "الذات".

كلامي السالف كله كان تعليقاً على الإنجيل الذي قرأته (لو ١٨:

١-٣٠).



والآن فإنني أتكلّم كلاماً عاماً عن "الرهبنة" من خلال الحياة الروحية العملية. فالرهبنة ليست واضحة عند الكثيرين: «لهم صورة التقوى،

وصايا السلوك - ١٥

ولكنهم مُنكرون قوتها» (٢ تي ٣: ٥). فيوجد رهبان يُدعون رهباناً، اسماً وشكلاً، ولكنهم بحسب التقوى الحقيقية والاتضاع الحقيقي، هم غير موجودين. وهذا شيء مُزعج جداً.

أول بنود الدستور الرهباني: "الصلاة":

لا بد من الالتزام بصلوات الأجدية وتلاوة المزامير. قد تفوت من الإنسان ساعة، لكن لا تفوت بقية السواعي. قد يحدث أن الإنسان لا يستطيع أن يُصلي كل المزامير، ولكن إن توفر الوقت فيجب أن تُصلي كل المزامير. يمكن أن تفوتني ساعة أو ساعتين، ولكن الساعة التي أُصليها لا بد أن أُصليها بأمانة وتقوى: مقدمة الصلاة، جميع المزامير، الإنجيل بدقة، القطع بخشوع وتقوى، وكذلك التحليل. كل هذا بكل تدقيق.

المداومة على تلاوة المزامير تُزكي الإنسان أمام الله، وإلا ستختفي من قلب الإنسان، وحينئذ يضعف الراهب وتضعف الرهبة. إذا بدأ الراهب يُهمل في صلوات الأجدية، بأن يكتفي ببضعة مزامير ويترك الأخرى، أو يكتفي بالإنجيل ويترك القطع، أو يُهمل في بداية الصلاة أو في نهايتها؛ ستكون النتيجة مرةً بأنه رويداً رويداً سترك المزامير كلها، ويتخلّى عن صلوات الأجدية؛ فيتغرب عن الرهبة كلها. ولن تستقيم حياة راهب بدون مزامير.

إن صلوات الأجدية ليست فرضاً قد فرض علينا قسراً، ولكنها مجتهداً أهّلنا له. فالأجدية هي دستور يومنا وحياتنا. هل توجد بلد بدون دستور؟ بالطبع لا. إذن، فالأجدية هي دستور حياتنا اليومية.

لا يوجد أب من الآباء أو قديس من قديسي الرهبة، صرّح بأن يترك

الراهب المزامير. فمن الممكن بسبب ضغطة العمل أو ضعف الجسد أو تراحم الوقت، تترك ساعة أو ساعتين، ولكن لا تترك كل السواعي؛ وحينئذ تكون لك النصر على العدو.

يمكن لراهب - بسبب ظروف معينة - أن يترك بعض السواعي، ولكنه في آخر ساعة يُصلي بحرارة ودموع وتدقيق، وحينئذ تدخل كل المزامير والصلوات داخل قلبه، فيشعر أنه صلى كل المزامير من أول باكر إلى آخر النهار؛ هذا إذا صلى الراهب ما تبقى له من ساعات بتقوى وخشوع.

والرب قال في الإنجيل الذي قرأناه: «ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل»، ثم أردف قائلاً: «أفلا يُنصف الله مختاريه، الصارخين إليه فهاراً وليلاً، وهو مُتمهلٌ عليهم؟». هنا صلاة «صراخ القلب». وقد سئل أحد الآباء: «ما هي الصلاة؟». فأجاب: «هي صراخ القلب إلى الله». فأول بند من الدستور الرهباني، هو الصلاة. ولذلك نجد أن الأجيحة هي الصلوات النهارية والليلية: «ينبغي أن تصلّوا ولا تملّوا»، ثم «ينصف الله مختاريه الصارخين إليه فهاراً وليلاً».

فيا ليت لا يمضي النهار بدون صلاة. ويا ليت لا يعبر الليل بدون صلاة. إذا حدث - لسبب ما - أن مضى النهار بدون صلاة، فعلى الأقل لا يعبر الليل بدون صلاة، لأنه «كان مساء وكان صباح يوماً واحداً» (تك ١: ٥)، معنى هذا أن اليوم يومٌ واحد، إذا انضبط المساء بالصلاة سينضبط اليوم كله!

+++

ثاني بنود الدستور الرهباني: ”التعامل مع الآخرين“ :

لقد لاحظتُ عند بعض الرهبان، في تعاملهم مع الآخرين، أنه لم تظهر فيهم رائحة الرهينة الحقيقية، ولا رائحة المسيح الذكية. فإن لم تُعطّر عملك بعمل الروح، ليأخذ رائحة المسيح، تكون في الحقيقة منقسماً على ذاتك، وتحيا حياتين!

احذر، يا أخي، أن تحيا حياتين، لأننا نحيا حياة واحدة، ”خلقة جديدة في المسيح يسوع“. ونحن، كرهبان، ينبغي أن نتجلى فينا جداً هذه الحقيقة. وهذا ليس قاصراً على الرهبان فقط، لأنه يجب على كل مسيحي، أن يحيا حياة واحدة كخلقة جديدة في المسيح يسوع، ولكنها تتجلى بصورة أكثر في الحياة الرهبانية. فالحياة هي حياة واحدة روحية؛ ولكن امتدادها على المستويين الظاهريين: المادي والجسدي، هو مظهر فعلي ملموس للحياة الروحية غير المنظورة.

الحياة الروحية هي حياة غير منظورة، فلا أحد يعلم ما في داخل قلبك، ولا أحد يعرف مدى علاقتك بالرب يسوع. تكلمنا سابقاً عن الصلاة أمام الله بروح عذراء عفيفة، بدموع وبساطة قلب وطهارة وقداسة عذراء، فمن يعلم عن هذه العلاقة؟ فالحياة الروحية حياة باطنية، حياة مكنونة، حياة سرّية، حياة ملائكية؛ ولكن لا يمكن أن تُعرّف أو تُقاس أو يُشهد لها أو يُشهد عليها إلا بمظهرها فقط، أو أفعالها الخارجية فقط.

❖ فعل الحياة الروحية الظاهري هو السلوك اليومي، هو العمل

الذي تعمله بأي عضو من أعضاء جسدك، بكل جهدك الجسدي. وهذا هو الذي يُكشَف أمام الآخرين.

الحياة الروحية تستطيع أن تُغطِّي الحياة المادية الأرضية، وتستطيع أن تثبت فاعليتها في التراب، في الأرض التي نَحيا عليها. إن كان على الأرض والحياة المادية فنحن قد مُتْنَا عنها مرتين: المرة الأولى في المعمودية عندما مُتْنَا مع المسيح عن هذا العالم، وهذا مما لا شكَّ فيه؛ والمرة الثانية في الرهينة، بمعنى أننا لا نُمارس الحياة كما يُمارسها الآخرون.

معنى هذا: إنَّ الحياة الروحية، حقًّا، هي الحياة السائدة، هي الحياة الفاعلة؛ أما الحياة المادية العملية التي نُمارسها كل يوم، فهي المظهر، هي الفعل المنظور للحياة الروحية غير المنظورة، هي الفعل الظاهري الذي يكشف عن الحياة الروحية المكنونة. والحياة الروحية إنما هي حياة واحدة.

إذا كانت الحياة الروحية، حياة يُغذيها الروح القدس فعلاً، فهي حياة تتجدَّد كل صباح: «إنه من إحسانات الرب أننا لم نَفَن، لأنَّ مراقبته لا تزول، هي جديدة في كل صباح» (مرا ٣: ٢٢)، حياة تتجدَّد باستمرار؛ كما يتجدَّد الدم في الجسد كل يوم، وتتجدَّد خلايا الجسم، وإلاَّ إن لم يحدث تجديد لخلايا الجسم، تجديداً كلياً، فمما لا شكَّ فيه سيكون مآل الإنسان إلى الموت!

فالحياة الروحية حياة متجدِّدة باستمرار: «أنَّ يوماً واحداً عند الرب كألف سنة» (٢ بط ٣: ٨)؛ تجديدها مستمرٌّ فوق الزمان: كل صلاة، كل تناول، كل سجود، كل دموع، كل عمل فيه اتضاع، كل عمل فيه

بذل، كل عمل فيه انسحاق. فالتجديد فوق الزمان، وليس حسب الزمان؛ بمعنى أنه ليس كل دقيقة، كل ساعة، كل شهر، كل سنة، مثلما يحدث في خلايا الجسم: خلايا العظام، وخلايا الشعر، وخلايا الدم... إلخ.

❖ فالتجديد الروحي لا بد أن يكون محسوساً ومنظوراً في الحياة اليومية.

لكن، ماذا تقول في شخص لم يتغير سلوكه بعد؟ ماذا تقول في راهب يقول: أنا طبعي كده؟! معنى أن يقول: أنا طبعي كده! أي أنه لا يتغير قط! مع أنه من اللازم والضروري أن يتغير وباستمرار: «تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رو ١٢: ٢).

التغيير لا بد أن يكون أساسياً: في طبيعتك، وفي طباعك، وفي أخلاقك، وفي سلوكك، وفي نظرتك للناس. التغيير لا بد أن يكون كل يوم. ولا بد أن يكون هناك تجديد مستمر في كل مرة تعمل فيها عملاً، أن يكون هناك شيء جديد، لمسة جديدة، رائحة جديدة من رائحة المسيح، تفوح عليك وعلى الآخرين.

تجديد الحياة الروحية يُجدد الحياة اليومية. لا بد أن تشرب وتتغذى من شريان النعمة. وبحسب المنظور الجسدي إذا ضاق شريان القلب وتعدّر مرور الدم من خلاله فإن عضلة القلب تموت، وبالتالي تصير حياة الإنسان في خطر جسيم. لماذا؟ لأن كمية الدم التي ينبغي أن تمر من خلال هذا الشريان قد قلّ تدفقها أو توقّف مرورها، فلم يحدث التجديد، وهنا يحدث ارتباك رهيب في الجهاز الوعائي كله.

هكذا أيضاً "شريان النعمة". شريان النعمة، لابد أن تتدفق من خلاله النعمة إلى الإنسان أولاً بأول. ولكن ليس من الضروري الربط دائماً بين العمل الروحي والعمل اليومي. فالعمل الروحي فائق ومستمر، يظل يسري ويتدفق حتى لو كان الإنسان نائماً: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ» (نش ٥: ٢)، «ليبتهج الأتقياء بمجد، ليرثموا على مضاجعهم» (مز ١٤٩: ٥). فإذا نمتَ ودموعك على وجنتيك ستجدد روحياً.

فتجديد الحياة إذا توقّف لا يحدث نمو أو تقدّم، وتظل عادات وطباع وسلوكيات الإنسان كما هي لا تتغيّر، أي يكون "محلّك سرّ": الذي يُخطئ يظل كما هو يُخطئ بنفس الأخطاء، والذي يشتم يظل يشتم، والذي يغضب يظل يغضب كما هو. لماذا؟ لأن طباعه كده! وهذا معناه أنه لا يوجد تجديد روحي إطلاقاً؛ معناه أيضاً توقّف شريان النعمة؛ معناه إعاقة عمل النعمة؛ معناه أن دم المسيح، الذي يُجدّد وجه الأرض، الذي يُجدّد الخليقة كلها، لا يجد الاستجابة القلبية لعمله. وبسبب كل هذا لا يحدث تغيير في المعاملات اليومية، وفي السلوك اليومي.

❖ أما الإنسان الذي يحيا في جدّة الحياة، وللعلم اسمها "جدّة الحياة"، وليست "الحياة الجديدة" فقط، أي "الحياة الجديدة المتجدّدة"؛ هذا الإنسان الذي يحيا هذه الحياة الجديدة المتجدّدة بالروح، لابد أن يُظهر هذه الحياة الجديدة المتجدّدة، بفعل، بمظهر، في سلوكه اليومي. فإذا وجدت أن سلوكك كما هو لم يتغيّر، أقرّع صدرك، وابك، لكي يهبك الرب التجديد.

الرهينة، في الحقيقة، هي "نموذج الخليقة الجديدة"، التي فيها حياة

واحدة، حياة روحية سائدة وتسري في جميع مناحي الحياة المادية والدينية، فتُجددها وتسبغ عليها رائحة المسيح شهادة لله الآب، حتى ولو في المائتين: «لأننا رائحة المسيح الذكية لله، في الذين يخلصون وفي الذين يهلكون. لهؤلاء رائحة موتٍ لموت، ولأولئك رائحة حياةٍ لحياة» (٢كو ٢: ١٥، ١٦).

❖ التجديد يساوي الحياة؛ وعدم التجديد يساوي الموت.

نحن نعلم أن المعمودية هي معمودية واحدة، ولكن بعض الآباء يقولون إن هناك معمودية ثانية اسمها "معمودية الدموع": "العين الباكية هي جرن لمعمودية التوبة والتجديد". معنى هذا أن "الدموع" وما يصحبها من قرع صدر وخافة الله هي تجديد للمعمودية الأولى.

أنا أركز في كلامي على "السلوك الرهباني" حتى لا نحيا حياتين. لابد أن تكون الحياة كلها للمسيح، ومتجددة بالمسيح، وليس فيها شيء أرضي.

لابد أن تراجع نفسك، وعلى ضوء محاسبة النفس ستكتشف مقدار ما يسري في حياتك من موت ومن ظلام ومن تقهقر إلى الوراء، والسبب لأنك أهملت حياتك الروحية، ولم تتجاوب مع خفقات النعمة وفعلها داخل قلبك؛ فبدأت تسري فيك الحياة الأولى وتطغى على كل تصرفاتك، كما يقول بولس الرسول: «نحن الذين مُتُّنا عن الخطية، كيف نعيش بعد فيها؟... إذاً لا تَمْلِكَنَّ الخطية في جسدكم المائت لكى تُطيعوها في شهواته» (رو ٦: ٢، ١٢).

فبعدما مُتُّم وأعضاؤكم ماتت مع المسيح، وفي المسيح، لله، وأخذتم

الحياة الجديدة؛ تعودون مرة أخرى لثملّكوا الخطية في جسدكم المائت،
مع أنه ميت!

فنحن نحيا في جدّة الحياة. ونحن نحيا حياة واحدة وليست حياتين.
إياك أن تفصل ما بين عمل أرضي وعمل روحي، بين سلوك جسدي
وسلوك روحي.

نحن أناس رُوحيون، وسلوكنا الرهباني هو الذي يكشف مقدار ما
بلغناه في الرهبة: إن كنا نُصلي أم لا! إن كنا قد قبلنا الحياة الجديدة
المتجدّدة أي نحيا في جدّة الحياة أم لا! إن كان شريان النعمة يسخ دم
المسيح في قلبنا أم لا! إن كان التناول من الأسرار الإلهية يعمل فينا أم لا!
أنت نحيا حياة واحدة وليست حياتين، فلا تفصل أي عمل تؤدّيه عن
خلاصك وعن حياتك الأبدية وعن صلواتك وعن روحياتك. أيُّ عمل
تمتد إليه يداك، هذا يختص بخلاصك، وهو متّصل بحياتك الأبدية، وهو
مظهرٌ لحياتك الباطنية، وفعلٌ يكشف ويشهد مدى تحدّدك في الحياة
وتحدّد الحياة فيك.

❖ إذا أردت أن تحيا في جدّة الحياة، فلا بد أن تُقيّم خلاصك، هذا
الفداء الذي تمّ والخلاص الذي نلته بموت المسيح على الصليب وقيامته
من بين الأموات. لا بد من تقييم المكاسب الروحية التي حرّتها من هذا
الخلاص بالنسبة لإمكانياتك وحياتك وظروفك، لأن هذا التقييم كفيلاً
بأن يُشيع في القلب فرحاً لا يُنطق به ومجيد، يجعلنا نسعى باجتهادٍ وراء
التجديد بلا تعب وبلا ملل.

فالدافع القوي، وربما الوحيد، الذي يجعلنا نثابر في جهادنا ونحتمل

الضيقات والأتعاب، ونصبر على المقاومات والعقبات والعثرات التي تعترض مسيرتنا، هو أننا نُقيِّم خلاصنا وإزاء هذا التقييم يَضْحى جهادنا واحتمالنا المصاعب هيئاً، كما يقول بولس الرسول: «لستُ أحتسبُ لشيء، ولا نفسي ثمينة عندي، حتى أتمم بفرح سَعْيي...» (أع ٢٠: ٢٤). هذا التقييم يصير مصدر قوة تدفعنا أن نتابع هذه الحياة الجديدة أو جدّة الحياة أو تجديد الحياة في سلوكنا اليومي بلا كلل أو ملل.



ثالث بنود الدستور الرهباني: ”الحب الأخوي“ أو ”المحبة الأخوية“ :

للأسف فإن مفهوم المحبة الأخوية سائدٌ على مستوى ”المزاج“، بمعنى أن الإنسان اللطيف الطيّب، نخبه؛ أما الإنسان غير اللطيف والذي يتعامل معنا بجدّة، فإننا لا نوّده مهما عمل معنا!

في الحقيقة، المحبة الأخوية، هي مفهوم آخر للحياة الجديدة. بمعنى: ما هي الحياة الجديدة؟ هي حياة الحب الإلهي.

ورُبَّ سائل يسألني: نحن قد عرفنا ما هي الحياة العتيقة! إنما حياة خطية أو حياة مادية ذات هموم أرضية؛ أما الحياة الجديدة فما هي؟ أو ما هي مميّزات الحياة الجديدة؟ أجيب فأقول: هي حياة الحب الإلهي.

❖ هذا هو البند الثالث الغالب في حياتنا الرهبانية، والذي لا بد أن يكون، كنموذج، على مستوى عال. فأنا ألاحظ أن المحبة الأخوية المتعارف عليها الآن، هي على مستوى المزاج الشخصي. وهذا مظهرٌ للحياة مادية ترابية، كما يقول المسيح: «إن أحببتم الذين يُحبُّونكم، فأني

فضل لكم؟ فَإِنَّ الخطاةَ أيضاً يُحِبُّونَ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ. وإذا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ، فَأَيُّ فضلٍ لكم؟ فَإِنَّ الخطاةَ أيضاً يفعلون هكذا» (لو ٦: ٣٢، ٣٣). ولكن في الحياة المسيحية، في الحياة الجديدة، في الحياة الروحية؛ لا تقوم المحبة على المزاج الشخصي أبداً. المحبة تقوم على أساس أنها جوهر الحياة نفسها، وجوهر الحياة هو المحبة. إن لم توجد المحبة، فلا توجد الحياة.

❖ معيار الحب بدون غرض أو بدون عَوَضٍ أو بدون نظرة عاطفية أو بدون مزاج شخصي؛ هو أن يكون حباً صافياً ينبع من قلب مُحِبٍّ دون النظر إلى المقابل أو العَوَضَ الذي سيناله الإنسان كَثَمَنٍ لهذا الحب. هذا هو الحب الإلهي، الحب الروحي، والذي مصدره هو الله.

❖ الحب الإلهي هو الذي يفيض علينا في الحياة الجديدة، ومن هذا الحب نحب بعضنا بعضاً دون تمييز أو تفرقة. والرب يسوع يقول: «تُحِبُّ الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك؛ هذه هي الوصية الأولى. وثانيةٌ مثلها هي: تُحِبُّ قريبك كنفسك» (مر ١٢: ٣٠، ٣١). هذه هي الحياة الجديدة، التي جاء المسيح وأعطى نموذجها الأعلى ووقتها العُظمى على الصليب: «ليس لأحد حُبٌّ أعظم من هذا، أن يضع أحدهُ نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣).

فالذي يأخذ نموذج المسيح الذي صُلب على الصليب من أجل الذين صلبوه ومن أجل خطاة العالم، هذا يعرف سرَّ الحب. هذه هي بذرة الحب السريَّة العجيبة جداً، أن المسيح مات من أجل الخطاة! هذا هو

الحب الإلهي. وقد يبدو لك هذا الحب صعباً، كيف يقدر أن يحب الإنسان عدوّه؟ هذه هيّة المسيح المصلوب، إذا أخذنا في أعماقنا سر الصليب، سر المسيح، إذا سكن المسيح في قلبنا؛ فيكون حبنا بلا حدود.

❖ يحكي "بستان الرهبان" عن القديس أنبا أغاثون هذه القصة:

- حدث مرةً أن مضى أنبا أغاثون إلى المدينة لبيع عمل يديه، فوجد إنساناً مجذوماً على الطريق. فقال له المجدوم: "إلى أين تذهب؟". قال له: "إلى المدينة". فقال له المجدوم: "اصنع معي رحمةً وخُذني معك". فحمّله وأتى به إلى المدينة. ثم قال له المجدوم: "خُذني إلى حيث تباع عمل يديك". فأخذه. ولما باع عمل يديه، سأله المجدوم: "بكمّ بعت؟". فقال له: "بكذا وكذا". فقال له المجدوم: "اشتر لي شبكة". فاشترى له، ومضى وباع، ثم عاد. وقال له المجدوم: "خُذ لي كذا وكذا من الأطعمة". فأخذ له. ولما أراد أنبا أغاثون الرجوع إلى قلايته، قال له المجدوم: "خُذني إلى الموضع الذي وجدتني فيه أولاً". فأخذه وردّه إليه. فقال له الرجل المجدوم: "مبارك أنت من الربّ إلهنا الذي خلق السماء والأرض". فرفع أنبا أغاثون عينيه، فلم يرّه، لأنه كان ملاك الربّ أرسل إليه ليمتحنه.

- وكان أنبا أغاثون يقول: "كنتُ أشاء لو وجدتُ رجلاً مجذوماً يأخذ جسدي ويُعطيني جسده".

فلماذا فعل القديس أنبا أغاثون هكذا مع الرجل المجدوم، مع أن الجُذام مرضٌ مُريعٌ مُعدٌّ! ذلك لأن بذرة الحياة، بذرة الحب الإلهي سكنت داخل قلب هذا القديس؛ فلم يُعدّ بعد يقوَى عليه الموت، أو تغلبه

العدوى من المرض، أو أي شيء آخر!

إن الحب الإلهي هو حقيقةٌ مُعاشة، ولو أنها تبدو شبه مستحيلة بالعقل والمنطق أن يحب الإنسان عدوه؛ ولكن هذا هو سر المسيح وسر المسيحية كلها.

❖ لقد قرأتُ، منذ مدة طويلة، قصة مُعبرة عن ولد صغير في أحد بلاد أوروبا علّموه في المدرسة أن يقول تسبحة "Gloria Maria" المجد لك يا مريم". فكان في ذهابه وإيابه، من البيت للمدرسة وبالعكس، وطوال النهار يقول: "جلوريا ماريا" أي "المجد لك يا مريم". وكان يوجد في ذلك الوقت في نفس الشارع المؤدّي إلى المدرسة قومٌ من اليهود المتعصّبين، فتضايقوا جداً من هذا الولد الذي كان يُردّد باستمرار التسبحة المريمية: "المجد لك يا مريم". ففي ذات يوم تربّصوا له وهو يسير في الشارع، وأمسكوا به وذبحوه وألقوا به في أحد المصارف. وبدأت أمه تقلق عليه، بعد أن انتظرت مجيئه طوال النهار ولم يأت. فخرجت من منزلها وقد أخذت معها والد الصبي وإخوته لكي يبحثوا عنه في كل مكان، وكان بحثهم هذا بلا طائل، فلم يجدوه. وفي آخر المطاف، وبينما هم راجعون إلى منزلهم، سمعوا صوتاً يقول: "جلوريا ماريا" أي "المجد لك يا مريم". فأخذوا يسترقون السمع ليعرفوا مصدر هذا الصوت، حتى عرفوا أن الصوت يصدر من أحد المصارف. فأخرجوا جثة الصبي، وسمعوا - ويا للعجب - صوتاً يخرج من هذه الجثة وهو يصرخ ويقول: "جلوريا ماريا". فأخذوه ودفنوه باحتفال مهيب. وكانوا إذا ذهبوا إلى قبره يسمعون صوتاً يقول: "جلوريا ماريا".

❖ هذه هي بذرة التسبيح، عندما كان هذا الصبي الصغير يُردّدها على لسانه، دخلت إلى قلبه سرّاً. وهذه البذرة لا تموت، حتى ولو مات الإنسان. ولذلك استمر هذا الصبي يُسبِّح بروحه حتى وهو مدفون في القبر!!

إذا سكن اسم المسيح المصلوب داخل قلبنا، سكن الحب الإلهي. ولا توجد بعد ذلك صعوبة في معاملتك لمن يُعاديك، أبداً. لن تحتاج إلى أي جهد لتُظهر المحبة لعدوك، أو لمن لا يُيادلك حبّاً بحب، أو لمن يحتقرك أو يفترى عليك أو يذمك. لن تجد صعوبة في محبة هذا الإنسان محبة صادقة لأنها هبة مجانية، مثل بذرة الحب هذه التي دخلت قلب هذا الصبي، وجعلته يُسبِّح بلا توقّف، حتى في موته وفي قبره!

الرهبة هي موت مع المسيح على الصليب. فكل ضيقة تقابلك من أي إنسان هي كَشْفٌ لمستوى أو نوع الحب الذي في داخل قلبك: هل هو حب إلهي أو حب بشري؟ فإذا احتملتَ هذا الإنسان فقط، فهذا جيد، ولكنه ليس حبّاً إلهياً مائة بالمائة؛ أما إذا لم تجد أية صعوبة في احتماله، وقبَلته بفرح، فالحب الإلهي ساكنٌ في قلبك.

غياب هذا الحب الإلهي عن حياتنا هو فضيحة، فهذا كشفٌ فاضحٌ لغياب سر موت المسيح على الصليب عن حياتنا. وإن غاب عنا سر موت المسيح، الذي هو سر المعمودية نفسه، فماذا يتبقى لنا؟!

❖ إذن، الحب الأخوي، هو معيار صادق وأمين لخلاصنا، لإيماننا، لحياتنا الجديدة، لعلاقتنا بالمسيح.

فإذا كان هذا المعيار مختلفاً، تصير الحياة برمتها مختلفة، وحياتنا الجديدة

المتحدّدة في المسيح غائبة.

هذا هو البند أو المعيار الثالث من دستور حياتنا الرهبانية.

❖ أما علاج هذا الخلل فهو: إماتة الذات. فالذي يجعلك لا تحب أخاك هو أنك تُحب نفسك. لو لم تكن تتأثر بمحبة نفسك، لكنك تحب كل واحد سواء كان أخاك أو صديقك أو زميلك أو عدوك. ولكن محبتك لنفسك فقط وتزكيتك لها، يعوقك عن محبة أي إنسان؛ ذلك لأن حب المسيح القائم على الموت عن العالم، ليس ساكناً فيك!

إن الموت عن العالم هو الوجه الثاني للحب الإلهي. الحب الإلهي والموت عن العالم هما وجهان لعملة واحدة.
ولربنا الجدد الدائم أبدياً، آمين.

القدرات الكامنة في النفس^(٢)

بسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد، آمين.

«١٤» وَكَانَمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُمْ أَمْوَالَهُ ١٥ فَأَعْطَى وَاحِدًا خَمْسَ وَزَنَاتٍ وَآخَرَ وَزَنْتَيْنِ وَآخَرَ وَزَنَةً - كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ. وَسَافَرَ لِلوَقْتُ. ١٦ فَمَضَى الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَاتٍ وَتَاجَرَ بِهَا فَرَبِحَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ آخَرَ. ١٧ وَهَكَذَا الَّذِي أَخَذَ الْوَزَنْتَيْنِ رُبِحَ أَيْضًا وَزَنْتَيْنِ أُخْرَيْنِ. ١٨ وَأَمَّا الَّذِي أَخَذَ الْوَزَنَةَ فَمَضَى وَحَفَرَ فِي الْأَرْضِ وَأَخْفَى فَصَّةَ سَيِّدِهِ. ١٩ وَبَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَتَى سَيِّدُ أُولَئِكَ الْعَبِيدِ وَحَاسَبَهُمْ. ٢٠ فَجَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَاتٍ وَقَدَّمَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ آخَرَ قَائِلًا: يَا سَيِّدُ خَمْسَ وَزَنَاتٍ سَلَّمْتَنِي. هُوَذَا خَمْسُ وَزَنَاتٍ أُخَرُ رَبِحْتُهَا فَوْقَهَا. ٢١ فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نَعْمًا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالْأَمِينُ. كُنْتُ أَمِينًا فِي الْقَلِيلِ فَأَقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. ادْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ٢٢ ثُمَّ جَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْوَزَنْتَيْنِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ وَزَنْتَيْنِ سَلَّمْتَنِي. هُوَذَا وَزَنْتَانِ أُخْرَيَانِ رَبِحْتُهُمَا فَوْقَهُمَا. ٢٣ قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نَعْمًا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الْأَمِينُ. كُنْتُ أَمِينًا فِي الْقَلِيلِ فَأَقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. ادْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ٢٤ ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا الَّذِي أَخَذَ الْوَزَنَةَ الْوَاحِدَةَ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ قَاسٌ تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تُبَذِّرْ. ٢٥ فَخَفْتُ وَمَضَيْتُ وَأَخْفَيْتُ وَزَنْتَكَ فِي الْأَرْضِ. هُوَذَا الَّذِي لَكَ. ٢٦ فَاجَابَ سَيِّدُهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ

(٢) عظة ألقاها الأب متى المسكين على الرهبان يوم ١٩ / ١٢ / ١٩٨٢.

وَالْكِسْلَانُ عَرَفَتْ أَنِّي أَخْصُدُ حَيْثُ لَمْ أَرْزَعْ وَأَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَبْذُرْ
 ٢٧ فَكَانَ يَتَّبِعِي أَنْ تَضَعَ فَصَّتِي عِنْدَ الصَّيَارِفَةِ فَعِنْدَ مَجِيئِي كُنْتُ أَخْضُ
 الَّذِي لِي مَعَ رَبِّ. ٢٨ فَخُذُوا مِنْهُ الْوَزَنَةَ وَأَعْطَوْهَا لِلَّذِي لَهُ الْعَشْرُ وَزَنَاتُ.
 ٢٩ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ.
 ٣٠ وَالْعَبْدُ الْبَطَالُ اطْرَحُوهُ إِلَى الظِّلْمَةِ الْخَارِجِيَةِ هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ
 وَصَرِيرُ الْأَسْنَانِ» (مت ٢٥ : ١٤-٣٠).



تذكرون في الكلمة السابقة عن "وصايا السلوك"، كنّا نتكلّم عن مقدار الخسارة التي تنشأ من توالي الإنسان المسيحي المسافر في زمان غربته قاصداً ملكوت الله. أما في هذه الكلمة فسوف أتكلّم عن موضوع يختص ببناء النفس.

مفهوم "بناء النفس" :

"بناء النفس" موضوعٌ متّسعٌ جداً، وهو يشمل الإنجيل كله. ولكني سوف أختار الخطوات الأكثر عملية أولاً، ثم أتقدم رويداً رويداً في نفس الموضوع. والغرض من كل هذا، أن يعرف الإنسان كيف يبتدئ حياته الروحية على أساس سليم؟ وكيف يبني على هذا الأساس؟ فإن كنا قد أضعنا بعض الوقت، ولكن ما تبقى من عمر أو من إمكانيات يجعلنا نبدأ من جديد، ما دام الوقت يُدعى وقتاً: «وَأَعُوْضْ لَكُمْ عَنِ السِّنِينَ الَّتِي أَكَلَهَا الْجَرَادُ» (يوئيل ٢ : ٢٥). فالكراسة مطلوبة دائماً، والتعليم مطلوب دائماً.

❖ "بناء النفس" عملية كبيرة، تقوم أساساً على وجود فعلي لإمكانيات فعلية وضعها الله في الإنسان. فعندما يُطالب المسيح الإنسان المسيحي بالاجتهاد والسلوك السامي إلى الدرجة التي تصل إلى محبة

الأعداء: «أحبُّوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم» (مت ٥ : ٤٤)؛ فليس هذا من فراغ، وإنما قد سبق وأعطى لكل مَنْ يؤمن به إمكانيات لتنفيذ وصاياه.

ولذلك نجد في إنجيل "الوزنات" الذي قرأناه «وكأنما إنسانٌ مُسافر دعا عبيده وسلَّمهم أمواله، فأعطى واحداً خمس وزنات، وآخر وزنيتين، وآخر وزنة»، ثم «بعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم»، وبعد المحاسبة، أعطى المكافأة لمن اجتهد، وأوقع العقاب على مَنْ تهاون وتكاسل.

❖ فالإنجيل ليس هو مجموعة من الوصايا فقط؛ ولكن الإنجيل أو الحياة المسيحية أو الحياة الجديدة في المسيح يسوع؛ هي إمكانيات وقدرات وطاقات وهبها الله للإنسان مجاناً في صميم الطبيعة البشرية، ولكنها كامنة فيه.

❖ على قدر استماع الإنسان وحفظه للوصايا، وعلى قدر استجابته لها؛ على قدر ما تبدأ تعمل فيه هذه الإمكانيات والمواهب التي أُعطيت له. ولكن هذه الإمكانيات لا تُمنح للإنسان فجأة، ولكنها إمكانيات وطاقات روحية تُوهب للإنسان من خلال حياته في المسيح. وبناءً على هذه الإمكانيات والطاقات والقدرات الروحية الكامنة في الإنسان، أعطى المسيح لنا الوصايا على أساس المحاسبة في النهاية.

"الوزنات" تُعطى لكل واحدٍ على قدر طاقته:

❖ وفي إنجيل الوزنات الذي قرأناه، نقرأ «كأنما إنسانٌ مُسافر دعا

عبيده وسلّمهم أمواله»، وقد أعطى الوزنات لكل واحد «على قدر طاقته». هنا المحدودية لم تأت من المسيح ولا من الروح القدس، ولكنها محدودية قدرة الإنسان نفسه على الاستيعاب والقبول. فعندما أعطى للأول خمس وزنات، كان ذلك لأنه استطاع واستعدّ وله الإمكانيات أن يُتاجر في الخمس الوزنات حتى ربح خمس وزنات أُخرَ فوقها. أما الثاني، فقدرتَه وطاقته لم تستوعب أكثر من وزنتين، ولذلك أعطاه وزنتين، فربح وزنتين أُخريين فوقهما. فلو كانت لديه الإمكانية لقبول خمس وزنات لكان قد أعطاه. فالحدودية ليست من طرف الله، ولكنها من طرف الإنسان، وهذا قد اتضح من متاجرة أولئك الذين أخذوا الوزنات على قدر طاقاتهم وإمكانياتهم.

فمن المهم جداً أن يكتشف الإنسان الطاقات والقدرات والمواهب التي أُعطيت له والكامنة في أعماقه! معنى هذا أنه من الضروري جداً أن يدخل الإنسان إلى أعماقه، ويكتشف ما هي الإمكانيات والطاقات والمواهب التي وهبها الله له؛ وهل هي كامنة أو مُعطّلة؟

في الحقيقة، عندما نتأمّل في الشخص الذي أخذَ خمس وزنات، نجد أنه تاجر بهذه الوزنات، فعندما جاء سيّده بعد زمان طويل وحاسبه، قال له: «يا سيّد، خمس وزنات سلّمتني. هوذا خمس وزنات أُخرَ ربحتها فوقها». معنى هذا أنه تاجر بالخمس الوزنات كلها، أي أنه لم يُهمَل أية إمكانية أو طاقة أو قدرة وهبها الله له، ولم يتركها مُعطّلة بلا فائدة. ولذلك هذا الإنسان أَرْضَى قلب سيّده جداً، لأنه لم يترك أية موهبة فيه مُعطّلة. وتشغيل أو تعطيل هذه الإمكانيات والقدرات تعود إلى الإنسان نفسه.

المواهب التي نأخذها

هي لحساب مجد المسيح:

❖ فهذه المواهب وهذه القدرات التي أُعْطِيتَ لنا، لم تُعْطَ لتكون لحسابنا الشخصي. وهذه نقطة في غاية الأهمية. فالإنسان الذي أُعْطِيَ محبة أو تواضعاً أو أية موهبة أخرى، لم يأخذ هذه المواهب والإمكانات ليعمل بها ويربح لحساب نفسه، ولكن هذا الربح لابد أن يُقدَّمه للمسيح، مع الأصل. أي الربح مع رأس المال.

❖ وفي الحقيقة، فإنَّ كل هذه الإمكانيات والمواهب والطاقات التي مُنحت لنا كأبناء الملكوت، كلها تتجمَّع - كرؤوس أموال مع أرباحها - وتصبُّ في شخص المسيح الواحد: «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف ٤: ١٣). فكل ما أخذناه من إمكانيات ومواهب، هي لحساب استعلان المسيح ومجده.

ولذلك ينتاب أولاد الله إحساسٌ مُرهف أن ما لديهم من مواهب وإمكانيات هي ليست لحسابهم وإنما هي لحساب المسيح. وهذا ليس تواضعاً من الإنسان وإنما هو استعلانٌ وكشفٌ للحقيقة التي ينبغي أن يعرفها كل أولاد الله.

المتاجرة بالوزنات،

وحساب الربح والخسارة:

❖ هناك أمران يجب أن نضعهما في اعتبارنا عندما نتحدث عن موضوع الوزنات:

أولهما: إنه «بعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم». أي أن هناك حساباً، وسيُطبَّق مبدأ الثواب والعقاب على جميع مَنْ أخذوا وزنات.

ثانيهما: إن هذه المواهب والعطايا والقدرات الكامنة في الإنسان، هي ملكٌ لله. فهي رأس مال إلهي، مواهب إلهية، عطايا قد استودعها الله الطبيعة الجديدة للإنسان، وهو يُطالب الإنسان بالتجارة بها. فلا بد أولاً من التجارة، أي أن الحساب سيأتي على أساس التجارة بهذه الوزنات.

إذا شرحنا هذا الموضوع على المستوى المادي، فإن التاجر لكي يربح، لا بد له أن يعمل ويكدّ كل يوم. وفي نهاية اليوم يُدوّن في كشف الحساب ما له وما عليه. ولا يمكن أن يسترخي أو يُهمل في تجارته وإلاّ سيخسر خسارة جسيمة. ولذلك فالمتجارة تستلزم ديمومة المراجعة اليومية.

وهكذا على المستوى الروحي، فالموهبة أو الإمكانية قد أُعطيت للإنسان وهي كامنة فيه، وتستلزم منه التجارة والمثابرة، لأننا - كما يقول بستان الرهبان - ساكنون في بلد اللصوص، وبتعبير القديس يوحنا الرسول: «العالم كله وُضِعَ في الشرير» (١ يو ٥: ١٩). فيمكن أن تُسرق أو تُخطف الإمكانيات التي لدى الإنسان وهو متوان ومتغافل، وهو لا يدري كيف حدث هذا! ثم تُعبّر الأيام وتجيء السنون ويأتي الحساب أخيراً!

الأسس التي تقوم عليها الحياة الروحية:

❖ ولكي نبي أنفسنا لا بد لنا أن نعرف ماهية الحياة التي نحيّاها؟! فأول أمر لا بد أن نُدرّكه أن هذه الحياة فيها الثواب وفيها العقاب.

القدرات الكامنة في النفس - ٣٥

والأمر الثاني أن المتاجرة في الوزنات محسوبة بصورة مستمرة، بمعنى أن الجهد والنية والإرادة محسوبة باستمرار، فالحياة كلها تحت المراقبة، لأن "عين الرب إهلك عليك من أول السنة إلى آخرها" (تث ١١: ١٢) وطوال عمرك.

إذا وضعنا في اعتبارنا أن حياتنا كلها تحت عناية ومراقبة الله المستمرة علينا، سنفرح جداً، ولكن في نفس الوقت سنخاف جداً. سنفرح أن جهادنا لا يُبدل هباءً، ولا احتمالنا الضيقات سيتبدد، ولا أمراضنا وآلامنا ومعاناتنا وكل ما يُصيبنا من محن سواء من أعداء خفيين أو ظاهرين سيصير كلا شيء. ولكن كل هذا الجهاد والاحتمال والصبر محفوظٌ عند الله، حتى الدموع كما هو مكتوب: «اجعل أنت دموعي في زَقْكَ، أما هي في سفرك» (مز ٥٦: ٨). الزَّق هو الجراب الذي يوضع فيه الخمر، ومعنى هذا أن دموعك، دموع دموع، محفوظة ومجموعة. وهذه هي إحدى الصور البسيطة ولكنها عظيمة جداً: إن حياتنا كلها محفوظة تحت العناية الإلهية، بعيون لا تغفل ولا تنام! ولكننا سنخاف، إذا تكاسلنا وأهملنا في المتاجرة في الوزنات التي أُعطيَت لنا، لأنه في النهاية سيوجد حساب.

فنحن لكي نبني حياتنا، لا بد أن نعرف الأسس التي تُقام عليها هذه الحياة، فهي تقوم على إمكانيات ومواهب قد أُعطيَت لنا في البدء دون طلب منّا، وتُوَهَّب لنا على قدر طاقتنا. فإن كان إيمانك عظيماً ستُعطي إمكانيات عظيمة؛ أما إن كان إيمانك ضعيفاً، فإن الإمكانيات التي ستُوَهَّب لك ستكون قليلة: «أعطي واحداً خمس وزنات، وآخر وزنيتين، وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته». إذن، فأنت هو المسئول!

مكتوب: «أَفْغَرُ فَاكْ فَأَمْلَأْهُ» (مز ٨١ : ١٠). كلمة "أفغر" تعني "افتح": "افتح فَاكْ فَأَمْلَأْهُ". فيوجد شخص يفتح فاه بل وقلبه وكيانه كله أمام الرب، فيملأه خيرات وبركات، بل ويملأه من روحه القدوس. أما إذا أغلق الإنسان فمه أو فتحه قليلاً وكذلك قلبه، فحينئذ سيأخذ بشُح.

❖ في قصة أليشع النبي مع امرأة من نساء بني الأنبياء أنها صرخت إليه قائلة:

+ «إِنَّ عَبْدَكَ زَوْجِي قَدْ مَاتَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عَبْدَكَ كَانَ يَخَافُ الرَّبَّ. فَأَتَيْتُ الْمُرَايَ لِأَتَّخِذَ وَلَدِيَّ لَهُ عَبْدَيْنِ. فَقَالَ لَهَا أَلِشَعُ: مَاذَا أَصْنَعُ لَكَ؟ أَخْبِرِينِي مَاذَا لَكَ فِي الْبَيْتِ؟ فَقَالَتْ: لَيْسَ لِحَارِيَتِكَ شَيْءٌ فِي الْبَيْتِ إِلَّا دُهْنَةُ زَيْتٍ. فَقَالَ: اذْهَبِي اسْتَعِيرِي لِنَفْسِكَ أَوْعِيَةً مِنْ خَارِجٍ، مِنْ عِنْدَ جَمِيعِ جِيرَانِكَ، أَوْعِيَةً فَارِغَةً. لَا تُثْقَلِي! ثُمَّ ادْخُلِي وَأَغْلِقِي الْبَابَ عَلَى نَفْسِكَ وَعَلَى بَنِيكَ، وَصُبِّي فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَوْعِيَةِ، وَمَا امْتَلَأَ انْقَلِيهِ. فَذَهَبَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى بَنِيهَا. فَكَانُوا هُمْ يُقَدِّمُونَ لَهَا الْأَوْعِيَةَ، وَهِيَ تَصُبُّ. وَلَمَّا امْتَلَأَتِ الْأَوْعِيَةَ، قَالَتْ لِابْنِهَا: قَدِّمِ لِي أَيْضاً وَعَاءً. فَقَالَ لَهَا: لَا يَوْجَدُ بَعْدُ وَعَاءً. فَوَقَفَ الزَّيْتُ. فَأَتَتْ وَأَخْبَرَتْ رَجُلَ اللَّهِ، فَقَالَ: اذْهَبِي بَيْعِي الزَّيْتُ، وَأَوْفِي دِينَكَ، وَعِيشِي أَنْتِ وَبَنُوكِ بِمَا بَقِيَ» (٢ مل ٤ : ١-٧).

ما أودُّ أن أقوله تعليقاً على هذه القصة، هي أنها تُعَبِّرُ عَنْ حَيَاتِنَا اليومية. فيقدر ما يوجد لديك إمكانية وقبول لعطايا الله، ستأخذ حتى آخر نسمة من حياتك. واحداً لديه إمكانية لقبول خمس وزنات، وآخر

القدرات الكامنة في النفس - ٣٧

ليست لديه إمكانية إلا لقبول وزنتين، وآخر لا يمكنه أن يقبل إلا وزنة واحدة. فالله ليس بظالم ولا هو مُمَيِّز لواحد دون آخر، وإنما الأمر كله متعلق بمدى قبول الإنسان لعطايا الله: «كل واحد على قدر طاقته».

وماذا عن الذي أُعطيَتْ له الوزنَة الواحدة؟

أما الإنسان الذي أُعطيَتْ له وزنة واحدة، فواضحٌ من سلوكه وتصرفاته، لماذا أُعطيَتْ له وزنة واحدة! ذلك لأنه حتى هذه الوزنَة الواحدة لم يتاجر بها، فما هي النتيجة لو أُعطيَتْ له أكثر من وزنة! إذن، هذه هي طاقته وإمكانياته، ومع ذلك لم يُتاجر حتى بالوزنة الواحدة.

وماذا قال صاحب الوزنَة الواحدة عندما جاء وقت الحساب: «يا سيِّد، عرفتُ أنك إنسانٌ قاس، تحصدُ حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر. فَخَفْتُ ومضيتُ وأخفيتُ وزنتك في الأرض. هوذا الذي لك!». فمن الواضح أن هذا الإنسان لا يستحق حتى هذه الوزنَة الواحدة. ومع ذلك لم يجرمه الله من هذه الوزنَة الواحدة، ولكن الحساب في النهاية حتمي لكل مَنْ أَخَذَ وزنات، حتى لِمَنْ يعرف عنه الرب أنه لا يُتاجر، وأنه سيختلس لنفسه، وسيهين اسم الله! فلا يوجد إنسانٌ يتجاسر ويقف أمام الله ويقول له: "أنت لم تُعطني شيئاً". الجميع سيأخذون، والجميع سيُحاسَبون.

الذي أَخَذَ خمس وزنات وربح فوقها خمس وزنات أخر، قد مجَّد الله، لأنه أثبت أن الله يُعطي بحكمة، يُعطي الإمكانيات والمواهب لأنه خير وصالح، وأيضاً يُعطي الإنسان حسب طاقته الكامنة في كيانه وقدرته على الاستيعاب والقبول. ونحن قد أخذنا وزنات، ولم نعمل بعد

ما يوازي هذه المواهب العُظمى التي وهبها لنا الرب يسوع المسيح.

ليس لإنسان أن يسأل الله بثقة أن يهبه اتضاعاً، ثم لا يُعطيه! ولا يتجاسر أحدٌ أن يقول إن الله لم يُعطني محبة للآخرين بالرغم من صراحي إليه! فالله «يُعطي الجميع بسخاء ولا يُعَيِّر» (يع ١ : ٥).

هبات الله وعطاياه هي بلا ندامة وبلا كيل:

❖ هناك أمران هامين فيما يُعطيه الله من عطايا ومواهب: أولاً: إن «هبات الله ودعوته هي بلا ندامة» (رو ١١ : ٢٩)، فالله لا يمكن أن يهب موهبة ثم يندم على أنه أعطاها، ذلك لأنه خيرٌ وصالح. وثانياً: «ليس بكيل يُعطي الله الروح» (يو ٣ : ٣٤)، فعطايا الله ومواهبه هي بلا كيل، بلا حدود!

وقصة أليشع النبي مع المرأة التي ذكرناها آنفاً، هي تعبيرٌ بديعٌ عما يحدث للنفس البشرية. فالزيت يُمثل الروح القدس، والوعاء هو الإنسان: «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم؟» (١ كو ٣ : ١٦). وكما قال الرب يسوع: «أنتم نور العالم» (مت ٥ : ١٤)، وهذا النور لا يمكنه أن يُضيء إلا إذا وُجدَ الزيت الذي يُنيره، والذي هو الروح القدس.

فلا يمكن لأي مسيحي - وبصفة خاصة الراهب - أن تنقصه أية قدرة من قدرات الروح القدس، أو الإنسان الجديد «المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أف ٤ : ٢٤)، أو أية ثمرة من ثمار الروح: «محبة فرح سلام، طول أناة لطف صلاح، إيمان وداعة تعفف» (غل ٥ : ٢٢).

❖ وبحسب رؤيتنا للعطايا التي يهبها الله للناس عموماً، أجسدناها

تنقسم إلى ثلاث حالات أو ثلاثة أوضاع:

• الحالة الأولى أو الوضع الأول لِمَن يُوهَب عطايا:

❖ حالة إنسان عادي جداً، مثل أي إنسان آخر، ولكننا نجد أنه بدأ يتغيّر في سلوكه وتصرفاته، وتظهر عليه صفات جديدة من الروح القدس لم تكن ظاهرة من قبل، فنتعجب من هذا، ونقول: أليس هذا فلاناً؟ ما الذي حدث له؟ لقد بدأت تظهر في تصرفاته محبة عجيبة للجميع بلا تفرقة! أو بدأ يعمل أعمالاً فيها بذل وعطاء! ما هذا التغير الذي حدث له، وبدا ظاهراً للعيان؟

ونجد أن هذا الإنسان البسيط بدأت تتفجّر فيه طاقات وإمكانات روحية كانت كامنة في أعماقه، ثم بدأت تظهر في سلوكه وأعماله. بدأت هذه الطاقات تنطلق من داخله وتعمل بصورة عجيبة جداً في جميع معاملاته وعلاقاته بالآخرين. هذه الطاقات والإمكانات كانت كامنة فيه، وهذه العطايا والقدرات الروحية كانت موجودة في أعماقه، ولكنه لم يستغلها ولم يتاجر بها. وفي الوقت الذي بدأ فيه يتغيّر ويتأثر بقراءة الإنجيل، أو سماع عظة، بدأ يتحرّك روحياً، وبدأت هذه الطاقات والمواهب الكامنة فيه تظهر بوضوح شديد.

• الحالة الثانية أو الوضع الثاني:

❖ هي عكس حالة الإنسان العادي أو البسيط، وهي حالة إنسان كسول مهمل شرير شرس، ولا رجاء في تغييره، وكل من يُقابله يهرب منه ولا يريد أن يتعامل معه. ثم مع مرور الوقت، نسمع أن هذا الإنسان الشرس أصبح قديساً، وبدأ يعمل أعمالاً تمجّد اسم الرب، وصار مثل

القديس موسى الأسود الذي كان سارقاً وزانياً ومجرماً ثم عرف الرب وتاب وصار قديساً عظيماً وأباً روحياً لكثيرين.

هذا الإنسان قد انتقل من حالة سلبية تامة إلى حالة إيجابية مُذهلة، فمن أين أتى هذا التحول العجيب؟ أتى هذا التحول من أعماقه عندما تاب ورجع إلى الرب، ظهرت الطاقات الكامنة فيه. وهذه الإمكانيات التي تفجّرت عند الإنسان الأول، ظهرت عند الإنسان الثاني بلا مانع، لأنها مُعطاة من الآب السماوي الخير الصالح، والذي لا يُميز أو يُفرّق بين واحدٍ وآخر.

في الحالة الأولى كان الإنسان عادياً جداً، ولكن بدأت تنطلق من أعماقه الطاقات الكامنة وتظهر في سلوكه وتصرفاته. أما الحالة الثانية فهي حالة إنسان شرس، نخسه ضميره، فبدأ يندم على أفعاله ويرجع إلى الرب ويتوب، فبدأت تتفجّر منه القدرات الكامنة فيه كالينابيع. فهذه الإمكانيات والطاقات التي في أعماق الإنسان، إذا ما أُتيحت لها الفرصة للانطلاق، ستظهر على أعلى مستوى ما يُمجّد الله.

إن هذه الحالة، أي حالة إنسان شرير شرس، إذا ما تاب وتغيّر بهذا الشكل البديع، وبدأ يصل إلى درجات سامية من السلوك الروحاني واستعلان نعمة المسيح فيه بهذا البهاء وهذا الجدد؛ ستكون بمثابة تبيّكيت شديد لنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور!

● الحالة الثالثة أو الوضع الثالث:

❖ هي حالة إنسان نشيط وذكي ونبه وماهر في عمله، ولكن ليس فيه روح الله. أعماله كلها يعملها بمجهوده وذكائه ومهارته: فكلّامه القدرات الكامنة في النفس - ٤١

منطقي، وتصرفاته باتزان وتعقل، وعمله مُتقَن غاية الإتقان؛ ولكن ليس فيه الروح القدس.

فهذا إنسانٌ تظهر فيه بوضوح قدرات ومهارات بشرية: في الرسم، وفي الموسيقى... إلخ، وهي مهارات تُصَقِّل وتنمو بالتدريب والتمرين. هذه القدرات والمهارات البشرية هي غير المواهب الروحية. فالموهبة الروحية هي نعمة أي عطية مجَّانية بلا ثمن، قدرة وقوة مجانية ممنوحة من الله لحساب خير الإنسان.

فنجِد، بعد فترة ما، أن هذا الإنسان الذي يمتلك الكثير من القدرات والمَلَكات البشرية، بدأ يتغيَّر وتتفجَّر فيه طاقات روحية، ويحدث له عملية تحويل لهذه القدرات. فكان أولاً يرسم صوراً عادية، فبدأ يرسم بمهارة صوراً دينية؛ كان يُتقِن الموسيقى العالمية والعزف على الآلات الموسيقية، فبدأ يستخدم هذه الموهبة في تمجيد وتسييح اسم الرب وتلحين الترانيم الروحية، وهكذا. فهنا لم تقف المهارة البشرية كعائق أمام الموهبة الروحية، أو حائل أمام العطية الإلهية التي استودعها الله فينا، أو لم تمنع القدرات الكامنة في أعماق الإنسان من الظهور والاستعلان.

التأمينات والمساعدات التي تُحفِّز النعمة على الاستعلان،

وأَسباب تعطل المواهب والقدرات الكامنة في الإنسان:

والسؤال الآن: لماذا هذه المواهب والقدرات الإلهية متعطِّلة عندنا؟
فهذا يضعنا تحت طائلة الدينونة!

❖ فأنا وضعتُ أمامكم الثلاث الحالات التي تعمل فيها نعمة الله، ولا بد لأيِّ إنسان أن يندرج تحت حالة من هذه الحالات:

١ - حالة إنسان عادي، ليس فيه شيء يزيد أو ينقص عن أيٍّ واحدٍ منّا.

٢ - حالة إنسان شرير شرس، لا تُطاق أخلاقه أو تصرفاته، ومعظم الناس لا تحبه أو تتعامل معه؛ بل تتحاشاه وتتجنبه إلقاءً لشره وشراسته.

٣ - حالة إنسان نشيط وذكي ونبه ومُتقن لعمله ويُحسن التصرف في جميع الأمور.

فهذه الحالات التي ذكرناها، تُظهر أن جميع البشر مؤهلون لأن تتفجّر منهم طاقات وإمكانات إلهية ومواهب روحية كامنة فيهم، وتنتظر لحظة انطلاقها لتعمل لحساب مجد الله.

❖ هناك الكثير من العوامل والتأمينات التي يُحيط بها الله أولاده، لكي تعمل وتشتغل المواهب الروحية المُودعة في أعماقهم، مثل: الإنجيل المنتشر في كل مكان ووصاياه التي تُقدّم لكل إنسان، الكنائس المفتوحة أبوابها في كل شارع أو مدينة، الآباء الروحيون المرشدون، العظات التي تُعزّي وتُعلّم، الكتب الروحية التي بلا عدد وبلا حصر، الكلام الروحي المكتوب أو المُسجّل، المذبح الذي يُقدّم عليه جسد الرب ودمه الأقدسين. كل هذه التأمينات والمساعدات مُقدّمة لنا ومُحيطة بنا، وهي تُحفّز نعمة الله على العمل وعلى الاستعلان.

فكل وصايا الإنجيل هي مُقدّمة لكل إنسان، وكل شخص مُطالبٌ بحفظها وتنفيذها. فعندما تقرأ الوصية وتعمّق فيها، تبدأ تعمل في أعماقك، فتبدأ تفرع صدرك وتبكي صارخاً: "إن هذا الكلام الإلهي مُرسلٌ لي". إذا

بدأتَ تجلس في هدوء وتحاسب نفسك على ضوء كلمة الله، ستجد أن الوصية موجهة كرسالة لك أنت، وإذا نُحَسَّ قلبك بهذه الكلمة الإلهية، فهذا يُظهر بأن لديك إمكانية روحية ونعمة إلهية كامنة في أعماقك.

منطق صاحب الوزنة الواحدة:

من المستحيل أن يُعطينا الله هذا الإنجيل دون أن يكون قد سبق ووهبنا القدرة على فهمه والعمل به؛ وإلاَّ يكون الله - بحسب فهم وفكر صاحب الوزنة الواحدة - "قاسياً وظالماً، يحصد حيث لم يزرع، ويجمع من حيث لم يبذر"!

أخشى بأن يكون هذا منطق البعض ممَّا في اليوم الأخير، عندما تمضي بنا الأيام على وتيرة واحدة، وتُفاجأ في النهاية أننا لم نتاجر فيما أخذناه من وزنات، فنعمل ما عمله صاحب الوزنة الواحدة: «فخضتُ ومضيتُ وأخفيتُ وزنك في الأرض»، ومعنى الأرض أي في الجسد؛ أي أخذنا المواهب وطمرناها في الجسد: الأكل والشرب والنوم واللعب، وكسب الأموال والشهرة والمهارة؛ دون أن نتاجر بها لحساب المسيح. وحينئذ عندما يحين وقت الحساب والمطالبة بالربح، نجد أنه لا توجد أرباح!

فالإنجيل مُقدَّم لنا على أساس إمكانيات وطاقات ومواهب روحية قد أعطيت لنا و"بلا كيل"، وهي كفيلة جداً بأن تجعلنا "ملح الأرض" و"نور العالم"!

❖ إذا استطعنا أن نحفظ كلام الرب ووصاياه في قلوبنا، ونعي جيداً أن الله قد أعطانا مجاناً طاقات ومواهب روحية ونعماً كثيرة، هذه العطايا والمواهب والقدرات هي رأس مالنا الروحي، ونحن مُطالبون بالتجارة في

هذه الوزنات والحصول على أرباح لحساب المسيح؛ فإننا سنأخذ هذا الأمر بمنتهى الجدية وإلى أقصى حدٍّ، لأنه في النهاية يوجد حساب للربح والخسارة، توجد مكافأة جزيلة للمتاجرة الحسنة، ويوجد عقاب صعب جداً للتواني والإهمال. فالتجارة في المواهب الروحية لحساب المسيح حتمية، والمجازاة أيضاً حتمية، ولا عذر لأحد إطلاقاً!

كانت المجازاة للذي أخذ الخمس الوزنات وربح فوقها خمس وزنات أخر، وكذلك للذي أخذ وزنيتين وربح فوقهما وزنيتين، هي: «نعمًا أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيّدك».

إمكانيات الإنسان هي التي تستوعب

ما يهبه الله من عطايا:

وكما قلتُ سابقاً فإن هذا التفاوت في الوزنات لم يأت من قِبَل الله، فإن مواهبه وعطاياه هي "بلا كيل"؛ ولكن كل واحد أُعطيَ من الوزنات "على قدر طاقته". ولكني أقول إن الذي أخذ الخمس الوزنات كان على مستوى هذه الوزنات الخمس، بمعنى أنه ليس لديه الإمكانية ليأخذ أكثر من هذا. لقد جاهد داخل أعماق نفسه، وهذا الجهاد الداخلي تساوى مع العطية التي مُنحت له. ولذلك لم يُطالبه الله بأكثر من إمكانياته.

وهناك نقطة هامة أودُّ أن أقولها: إن الله لا يُحدّد ما يُعطيه لهذا أو لذلك، وإنما طاقة الإنسان وإمكانياته هي التي تستوعب ما يُعطيه الله. فنحن قد باركنا الله «بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» (أف ١: ٣، ٤)، و«نحن عمله، مخلوقين

القدرات الكامنة في النفس - ٥٥

أسس الحياة المسيحية - م ٥

في المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها»
(أف ٢: ١٠).

فهذه الخليقة التي خلقها الله كانت قادرة على استيعاب عطايا ومواهب الله كلها؛ ولكن النقص وعدم المقدرة على استيعاب وقبول عطايا الله كان من جهة البشرية. فهبات الله للإنسان هي بلا حدود، والمسيح كامل في عطايه؛ وإنما إمكانيات الإنسان هي التي أصبحت ضعيفة وهزيلة لقبول هذه الهبات والعطايا.

العطية الكاملة أو النعمة الواحدة أُعطيَت للجميع بالتساوي:

❖ في إنجيل القديس لوقا (١٩: ١٢ - ٢٧) نجد مفارقة لطيفة:
«إنسان شريف الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مئلكاً ويرجع.
فدعا عشرة عبيد له وأعطاهم عشرة أمتاء، وقال لهم تاجروا حتى آتي».
هنا أعطى لكل واحد مثل الآخر دون زيادة أو نقصان. فلا يستطيع أيُّ واحد منهم أن يدَّعي أنه ظلم بدعوى أن ما أُعطيَ له هو أقل من الآخرين.

وعندما جاء وقت الحساب: «جاء الأول قائلاً: يا سيِّد، مَنَّاكَ ربح عشرة أمتاء. فقال له: نعماً أيها العبد الصالح، لأنك كنت أميناً في القليل، فليكن لك سلطان على عشر مدن. ثم جاء الثاني قائلاً: يا سيِّد، مَنَّاكَ عَمِلَ خمسة أمتاء. فقال لهذا أيضاً: وكن أنت على خمس مدن. ثم جاء آخر قائلاً: يا سيِّد هوذا مَنَّاكَ الذي كان عندي موضوعاً في منديل، لأني كنتُ أخاف منك، إذ أنت إنسان صارم، تأخذ ما لم تضع وتحصد ما لم تزرع.

فقال له: من فمك أدينك أيها العبد الشرير. عرفتَ أني إنسانٌ صارم، آخذ ما لم أضع، وأحصد ما لم أزرع، فلماذا لم تضع فضتي على مائدة الصبارة، فكنتُ متى جئتُ أستوفيها مع رباً (أي مع ربح)».

هنا هذا الإنسان بلا أيِّ عذر أو شكوى، فلقد أُعطيَ له مثل بقية رفاقه، ولا يستطيع أن يدَّعي أنه ظلم وأخذ أقل من الآخرين. هنا هذا المثل الذي قاله الرب يسوع يلغي كل شكوى أو تذرُّر أو تظلم من أيِّ إنسان يدَّعي أنه أخذ موهبة أقل من هذا أو من ذاك.

فالله خيرٌ وصالح، وخيره يهبه بالكامل للجميع «كي يكون الله الكلُّ في الكل» (١ كو ١٥ : ٢٨)، أي "كل شيء في كل واحد". فالله كليٌّ وليس جزئياً، وهو يعطي نفسه!

❖ فالتعدُّد والتمايز في المواهب، والذي يوضِّحها مثلُ الوزنات، يُبين أن كل واحد أخذ من الوزنات على قدر طاقته واستيعابه وإمكاناته. أما العطية الكاملة، أو الروح الواحد، أو النعمة الواحدة، فقد أُعطيت للجميع بالتساوي، وهذه يُظهرها مثلُ "الأمناء العشرة التي أُعطيت بالتساوي لجميع العبيد".

فالروح القدس الذي يظهر بوضوح في شخص ما في أعمال المحبة التي يؤدِّيها، هو نفس الروح الواحد الذي منه تنبع جميع الفضائل، فيظهر في شخص آخر في مسكنته واتضاعه، وفي آخر في احتماله وصبره، «ولكنه لكل واحد يُعطى إظهار الروح للمنفعة. فإنه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمان بالروح الواحد...» (١ كو ١٢ : ٧-٩).

كل مواهب الله تعمل معاً بالتزامن مع بعضها:

وحسب خبرات آبائنا القديسين، فإن الذي يُتقن موهبةً ما، يستطيع بنعمة المسيح أن يُتقن الكل. والذي يقتني موهبةً ما، مُحافظاً عليها بسهر ودموع ليلاً ونهاراً، يهبه الله النمو في بقية المواهب دون أن يدري. فكل مواهب الله منفتحة على بعضها، ولا يمكن أن تعمل موهبة دون عمل مواهب أخرى. فعندما يتقبّل المرء موهبةً ما، فإذا حافظ عليها وتاجر بها لحساب المسيح باشتياق وشغف وحرارة روحية، فإنه دون أن يدري يمتدّ وينمو إلى "قياس قامة ملء المسيح"، وتكون حينئذ كل وصايا المسيح سهلة التنفيذ وليست ثقيلة.

هكذا إذا حفظنا وصية واحدة من وصايا الإنجيل، وبدأنا نتعمّقها ونحبها ونطلبها باشتياق، فحينئذ تُعطى القوة على تنفيذها، ونكون كأننا قمنا بتنفيذ الوصايا كلها. ومن هنا يظهر أمام أعيننا مقدار تعوُّفنا وعدم نمونا الروحي. فعندما لا نقدر أن نحتمل أو نصبر، ولا نستطيع أن نتضع؛ فهذا معناه ضعف المحبة وطول الأناة، وبالتالي غياب الفرح والسلام، فكما هو مكتوب: «لأن من حفظ كل الناموس، وإنما عثرَ في واحدة، فقد صار مُجرماً في الكل» (يع ٢: ١٠). هل معنى هذا أن الله ظالم، كما يدّعي الذي أخذَ الوزنة الواحدة، حتى أن الذي يُخطئ في واحدة من الوصايا كأنه أخطأ في الكل؟ لماذا نأخذ الوجهة السلبية فقط، فعندما نأخذ الوجهة الإيجابية، نجد أن الذي يأخذ موهبةً ما أو عطيةً ما ويُتاجر بها حسناً لحساب المسيح، فيكون كما لو أنه قد نال الكل!

وكما قرأنا في إنجيل القديس لوقا، فإن توزيع الأَمْناء أي النعمة

الواحدة كان للجميع بالتساوي. فالقدرات مُنحت، ونِعَم الله وَهَبَتْ، وأصبح الإنجيل هو الدليل السري الذي من خلاله نكتشف ما لدينا من إمكانيات ومواهب، وكيفية المتاجرة فيها والحصول على أرباح.

التجارة العظيمة:

والقديس بولس الرسول يقول: «أما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة» (١ تي ٦: ٦). فالتقوى هي "التدين السليم" الذي يتضمن كل الوصايا معاً. فعندما تلتحم "التقوى" مع "القناعة" في الأمور المادية؛ حينئذ تصبح "تجارة عظيمة".

والمسيح في مثل الوزنات، جعل المتاجرة والربح في الوزنات أمراً هاماً وضرورياً. ولكن لا بد أن تكون المتاجرة في الوزنات التي استؤمننا عليها، والأرباح الناجمة عن هذه المتاجرة، هي لحساب المسيح. ونحن سوف نشترك في مجد المسيح: «إن كنا نتألم معه لكي تتمجد أيضاً معه» (رو ٨: ١٧)، وأيضاً سنشارك في أفراحه: «كما اشرركم في آلام المسيح، افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مُبتهجين» (١ بط ٤: ١٣).

ويقول أيضاً القديس بولس: «الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده، الذي هو الكنيسة» (كو ١: ٢٤). فإن كانت الكنيسة اليوم تُكمل نقائص شدائد المسيح، فهي (ونحن أعضاء فيها) ستشارك في أبجاده وأفراحه أيضاً؛ وذلك عبّرَ هذه التجارة التي تكلمنا عنها، عبّرَ الحياة اليومية التي فيها نعمل من أجل الرب الليل والنهار: الليل، أي المرض، الضيق، الآلام، الاضطهاد؛ والنهار، أي السّعة، الفرح، السلام. نعمل في أوقات الضيق

والآلام، ونعمل في أوقات السَّعة والسلام. نعمل في الظروف الصعبة والقاسية، ونعمل في الظروف السهلة والهيَّنة. فلا يستطيع إنسان أن يقبل النهار ويرفض الليل، لا بد أن تحيا النهار والليل. فإن كنتَ تريد أن تحيا في النهار وتمتَّع بنور ودفء الشمس، فعليك أيضاً أن تتقبَّل الليل بكل ما فيه من ظلمة وصقيع!!

❖ يستحيل أن يُتاجر إنسانٌ في المسرَّات إن لم يستطع أن يُتاجر في الأحزان والضيقات والآلام. هذه هي التجارة الحقيقية.

وكما قلتُ لكم - سابقاً - إن الإمكانات والقدرات لا يُحرَم منها أي إنسان، وهم على مستوى البشر ينقسمون إلى ثلاثة أنماط: الإنسان العادي البسيط؛ والإنسان الشرير الشرس؛ والإنسان النشيط الذكي المُتقِن لعمله. وحتى لو كانت الظروف التي تُحيط بالإنسان هي ظروف صعبة وقاسية وممريرة، لكنها لا تمنع الإنسان من أن يكون صاحب طاقات وقدرات كامنة فيه؛ وإنما توائى الإنسان وتراخيه، وعدم إيمانه بخيرية الله وصلاحه، وعدم تصديقه الكامل لوصايا ومواعيد الإنجيل، كل هذا يُعطلُّ ظهور القدرات الكامنة فيه وانطلاقها من أعماقه.

جميع المواهب مذكورة في المسيح:

كل المواهب مذكورة في المسيح: «المُذخَّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو ٢: ٣)، ونحن قد أخذنا «روح التَّبَنِّي الذي به نصرخ: "يا أباً الآب". الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله؟ فإن كُنَّا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رو ٨: ١٥-١٧). لقد صرنا، في المسيح يسوع، ورثة الله، ورثة لكل عطايا السماء ومواهبها. فلم

يُعدُّ إنسانٌ آمنٌ بالربِّ وقَبِلَ خلاصه يتَحَجَّجَ بأية حجة أنه لم يُعْطَ قدرة أو إمكانيّة أو موهبة، «لكي يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ» (رو ٣ : ١٩).

تحذيرٌ من صاحب الوزنة الواحدة:

أعود مرة أخرى وأُبْهَكُكُمْ، أن تأخذوا حذرَكُمْ من سلوك صاحب الوزنة الواحدة، لأنه يوجد البعض الذي يُماثلُه في فكره وكلامه وسلوكه، عندما يُكرِّر الكلام: بأنه لم يأخذ شيئاً، أو أنه أخذ أقل من الآخرين، أو أن الله قد ظلمه، أو أن ظروفه صعبة، وأيامه كلها مرارة وصعوبات؛ هذا كله كذب في كذب.

والإنجيل يقف قبالة كل مَنْ يطرح هذه التساؤلات، لأن كل واحد منّا قد أُعْطِيَ له بلا كيل، والمواهب والعطايا الروحية هي في أعماق كل مَنْ آمن واعتمد، والروح القدس مستعدٌّ في كل لحظة «أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر» (أف ٣ : ٢٠)؛ وما عليك إلا أن تُضْمِرَ «الموهبة التي فيك» (١ تي ٤ : ١٤).

أخشى أن يكون كثيرون أصحاب نظرية الموهبة الواحدة أو العطية الواحدة أو الوزنة الواحدة؛ يتكاسلون في النهار وينامون في الليل، ولا يُقَدِّمون صلوات أو تسابيح، ولا يصومون، ولا يُمارسون التقوى في حياتهم وأفكارهم وسلوكهم، ولم يملأ خوف الله قلوبهم؛ ثم بعد ذلك يلومون الله أنه لم يُعْطِهِمْ شيئاً أو أعطاهم أقل من الآخرين!

الرب يسوع نفسه هو الذي أخذناه في قلوبنا:

❖ نحن لم نأخذ خمس وزنات أو وزنتين أو حتى وزنة واحدة فقط، ولكننا قد أخذنا الرب يسوع المسيح نفسه: «لأن كلَّكم الذين اعتمدتم

بالمسيح قد لبسْتُم المسيح» (غل ٣: ٢٧)، «مع المسيح صُلِبْتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا في» (غل ٢: ٢٠) «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧).

ويقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس: «... وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كلِّ ملء الله» (٣: ١٩)، أي «ملء اللاهوت»! وذلك فيما يُناسبنا من مواهب وعطايا وسلوك وحياة وحب وبذل وموت وقيامة! فصرنا شركاء المسيح في آلامه وموته، وفي قيامته ومجده: «إن كُنَّا نتألم معه لكي نتمجّد أيضاً معه» (رو ٨: ١٧)، «كما اشركتم في آلام المسيح، افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مُبتهجين» (١ بط ٤: ١٣).

† † †

وصايا رهبانية:

† «نحن علينا واجبات وليس لنا حقوق».

† «عملنا الوحيد هو أن نُحبَّ الله ونُسعد أنفسنا بهذا الحب»، كما يقول أحد الآباء القديسين.

† لا بد أن نسلك طريق الآباء، وهو طريق التجرّد ومخافة الله، طريق التقوى والدموع. نحن قد مُتْنَا عن العالم ومات العالم بالنسبة لنا، كما يقول بولس الرسول: «وأما من جهتي، فحاشا لي أن أفتخر إلاّ بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلِبَ العالم لي وأنا للعالم» (غل ٦: ١٤).

† أهم أنواع التجرّد هو التجرّد من الذات، أو جَحْد الذات، أو إماتة الذات. فأبأونا تجرّدوا من كل شيء حتى من ذواتهم، فعاشوا كأنوار

وسط ظلمة هذا العالم، وأضاءوا المسكونة كلها بسيرة مقدسة إلى اليوم.

✠ اُحذروا من التذمُّر، لأنه إذا استولى على إنسان يُحِيلُ حياته إلى جحيم. فكل ما نواجهه ويحدث لنا هو بتدبير وبسماح من الله وهو لخيرنا وخلصنا: «لأنِّي أعلم أنَّ هذا يؤوِّل لي إلى خلاص بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح» (في ١ : ١٩)، «ونحن نعلم أنَّ كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يُحِبُّون الله» (رو ٨ : ٢٨).

✠ اجعلوا الشكر يملأ حياتكم، شكراً دائماً متواصلاً لكي يعمل الله في حياتكم ويُنيكم في النعمة.

✠ كذلك اجعلوا خوف الله يملأ قلوبكم، لأن «رأس الحكمة مخافة الرب» (مز ١١١ : ١٠؛ ابن سيراخ ١ : ١٦)، لكي يتمجِّد الله في حياتكم. فإنَّ مخافة الرب عندما تدخل قلب إنسان، فإنها تُصَيِّرُه إنَّاء صالحاً لعمل الروح القدس، لأن الحكمة الإلهية تسكنه وترتاح فيه. إن لم تسكن مخافة الله في القلب، فمهما عَمِلَ الإنسان لا ينال شيئاً، لأن بداية كل عطية سماوية هي خوف الله.



تنبيه وتحذير من التذمُّر:

نحن نعيش في ملء نور الله، وتغمرنا نعمة المسيح، ونحيا في أحضان القديسين. فعلياً أن نتاجر في الوزنات التي وهبها لنا الله، لأننا أصبحنا أصحاب هذا الميراث: «ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رو ٨ : ١٧).

أما التذمُّر الذي يُصيب البعض منّا، مثل صاحب الوزنة الواحدة، فإن نتيجته صعبة جداً، مثلما قيل له: «خُذُوا منه الوزنة وأعطوها للذي له القدرات الكامنة في النفس - ٥٣

العشر وزنات. لأن كلَّ مَنْ له يُعطى فيزداد، ومَنْ ليس له فالذي عنده يؤخذ منه. والعبد البطال اطرحوه في الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (مت ٢٥ : ٢٨-٣٠).

توسّلات إلى الله،

وتوجيهات إلى الرهبان:

أطلب من الرب يسوع أن يلمس، بروحه القدوس، قلوبكم، ولا يكون هذا الكلام للدينونة، فتنبّهوا لحياتكم وخلاصكم: «لذلك يجب أن تنتبّه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نفوته... فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره» (عب ٢ : ٣١).

احترسوا لأنفسكم، لأن الدعوة التي دُعيتُم إليها هي دعوة ثمينة وغالية جداً؛ والآباء قبلوها بإيمان، وتمسّكوا بها بكل قلوبهم، واجتهدوا بصدق وإخلاص ليسلكوا بمقتضاها ولا يَحيدوا عنها، حتى وصلوا بسلام إلى مبتغاهم، إلى الوطن السماوي الأفضل. أما أنتم فـ «هكذا يُقدّم لكم بسعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح الأبدى» (٢ بط ١ : ١١)، إذ «آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم» (يو ٤ : ٣٨).

أتوسّل إلى الله أن يُنبّه قلوبكم لتدركوا ما مدى الغنى والمجد الذي ينتظركم إذا سلكتم بمخافة الرب وحسب وصايا الإنجيل.

ولربنا المجد الدائم أبدياً، آمين.

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟^(١)

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، آمين

« ١ فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللَّهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً
حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ عِبَادَتُكُمْ الْعَقْلِيَّةَ. ٢ وَلَا تُشَاكِلُوا هَذَا الدَّهْرَ
بَلْ تَغْيَرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللَّهِ
الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ. ٣ فَإِنِّي أَقُولُ بِالنَّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي لِكُلِّ مَنْ هُوَ
بَيْنَكُمْ: أَنْ لَا يَرْتَبِي فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَبِي بَلْ يَرْتَبِي إِلَى التَّعَقُّلِ كَمَا قَسَمَ
اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مَقْدَرًا مِنَ الْإِيمَانِ. ٤ فَإِنَّهُ كَمَا فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ لَنَا أَعْضَاءُ
كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ لَيْسَ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ لَهَا عَمَلٌ وَاحِدٌ ٥ هَكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ:
جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ وَأَعْضَاءُ بَعْضًا لِبَعْضٍ كُلٌّ وَاحِدٌ لِلْآخَرِ. ٦ وَلَكِنْ
لَنَا مَوَاهِبٌ مُخْتَلِفَةٌ بِحَسَبِ النِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لَنَا: ٧ أُبُوءُ فَبِالنَّسَبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ
٧ أَمْ خِدْمَةٌ فِي الْخِدْمَةِ أَمْ الْمَعْلَمُ فِي التَّعْلِيمِ ٨ أَمْ الْوَاعِظُ فِي الْوَعْظِ
الْمُعْطَى فَبِسَخَاءِ الْمَدَبِ فَبِاجْتِهَادِ الرَّاحِمِ فَبِسُرُورٍ. ٩ الْمَحَبَّةُ فَلْتَكُنْ بِلَا رِيَاءٍ.
كُونُوا كَارِهِينَ الشَّرِّ مُلْتَصِقِينَ بِالْخَيْرِ ١٠ وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ
الْأَخَوِيَّةِ مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْكِرَامَةِ ١١ غَيْرَ مُتَكَاسِلِينَ فِي الْاجْتِهَادِ
حَارِّينَ فِي الرُّوحِ غَائِدِينَ الرَّبَّ ١٢ فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ صَابِرِينَ فِي الضِّيقِ
مُؤَاطِبِينَ عَلَى الصَّلَاةِ ١٣ مُشْتَرِكِينَ فِي أَحْتِيَاجَاتِ الْقَدِيسِينَ غَاكِفِينَ عَلَى
إِضَافَةِ الْغُرَبَاءِ. ١٤ بَارِكُوا عَلَى الَّذِينَ يَضْطَهُدُونَكُمْ. بَارِكُوا وَلَا تَلْعَنُوا.

(١) عظة ألقاها الأب متى المسكين على الرهبان يوم ٢٦ / ١٢ / ١٩٨٢.

١٥ فَرِحَا مَعَ الْفَرَحِينَ وَبُكَاءَ مَعَ الْبَاكِينَ. ١٦ مُهْتَمِّينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
اهْتِمَامًا وَاحِدًا غَيْرَ مُهْتَمِّينَ بِالْأُمُورِ الْعَالِيَةِ بَلْ مُنْقَادِينَ إِلَى التَّضَعُّينِ.
لَا تَكُونُوا حُكَمَاءَ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ. ١٧ لَا تُجَاوِزُوا أَحَدًا عَنْ شَرِّ بَشَرٍ. مُعْتَنِينَ
بِأُمُورِ حَسَنَةٍ قَدْ آمَ جَمِيعُ النَّاسِ. ١٨ إِنْ كَانَ مُمَكِّنًا فَحَسَبَ طَاقَتِكُمْ
سَالَمُوا جَمِيعَ النَّاسِ. ١٩ لَا تَنْتَقِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ بَلْ أَعْطُوا
مَكَانًا لِلْغَضَبِ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: "لِي الثَّغْمَةُ أَنَا أَجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ.
٢٠ فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَطَافِعْهُ. وَإِنْ عَطَشَ فَاسْقِهِ. لِأَنَّكَ
إِنْ فَعَلْتَ هَذَا تَجْمَعُ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ". ٢١ لَا يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ
بَلْ أَغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ» (رو ١٢: ١-٢١).



الكلام الذي قلناه سابقاً، يتجمّع كله حول فكرة واحدة: كيف نحيا؟
وكيف نبي أنفسنا؟ وكيف نسلك بحسب وصايا الإنجيل يوماً فيوماً؟

تحدّثنا عن المواهب أو القدرات أو الطاقات الروحية الكامنة داخل
النفس البشرية، والتي استودعها الله طبيعتنا الجديدة في المسيح. وقد
أعطيت لكل واحد فينا على قدر طاقته، ومطلوبٌ منا أن نتاجر في هذه
الوزنات، لأن في نهاية المطاف سيكون هناك حسابٌ عسير سواء للربح
أو للخسارة!

والقصد من هذا الكلام أن نكتشف الغنى الجزيل الذي استودعه الله
فيّنا؛ نكتشف الإمكانيات الروحية الهائلة التي وهبها الله لنا؛ نكتشف
ما ورثه المسيح - بموته وقيامته - في طبيعتنا الجديدة، في إيماننا، في حُبنا،
في علاقتنا بالآخرين، في سلوكنا اليومي.

والأصحاح الثاني عشر من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، يُعتَبَرُ

منهجاً متكاملًا للحياة المسيحية، وهو يتركز أيضاً في الطاقات والإمكانات والمواهب الروحية التي أُعطيَت لنا وكامنة في أعماقنا، منتظرة لحظة انطلاقها واستعلانها لمجد اسم المسيح.

وعندما نقرأ هذا الأصحاح بتمعن، نجد أنه ليس مجرد وصايا، ولكن هناك ارتباط وثيق بين كل وصية وأخرى، وهي وصايا متسلسلة بدقة مُبهرة، إلى الدرجة التي لا نستطيع أن نُقدِّم وصية على وصية أخرى، ممَّا يُظهر أن هذا الأصحاح هو عبارة عن منهج متكامل للحياة الروحية.

ثم نجد أن القديس بولس الرسول - بإلهام الروح القدس - يضع التحذير من أمرٍ سالب ثم يضع بجانبه التوجيه لأمرٍ إيجابي في آية واحدة وفي تناغمٍ بديع وبصورة نادرة. والقارئ لهذا الأصحاح يجد أن القديس بولس قد وضع ضوابط لكل وصية. والقصد من ذلك أنه يُؤمِّن على عمل النعمة في الإنسان، سواء في كل فكرة يطرحها (القديس بولس) أو في كل وصية يُقدِّمها.



الارتباط بين الجهد الجسدي والجهد العقلي في العبادة:

+ «فأطلب إليكم، أيها الإخوة، برأفة الله أن تُقدِّموا أجسادكم ذبيحة حيَّة مُقدَّسة مرضية عند الله، عبادتكم العقلية».

لاحظوا أن القديس بولس يقول: "قدِّموا أجسادكم"، ثم يقول: «عبادتكم العقلية». هنا يتكلَّم عن الارتباط بين الجهد الجسدي والجهد العقلي الفكري الذهني. هناك ارتباط بين ما تقدِّمه في عبادتك من مجهود جسدي: سجود في الصلاة، رفع اليدين في التوسُّل إلى الله، سهر،

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٥٧

صوم... إلخ؛ وبين الجهد العقلي سواء في التأمل أو في ضبط الفكر من التشتت أو في الصلاة العقلية.

❖ "قدموا أجسادكم ذبيحة حيّة"، هنا المقدمة التي تُقدّمها إلى الله تبتدئ بتقديم الجسد كذبيحة حيّة. فالجهد المبذول في العبادة يبتدئ من الجسد. المنهج الروحي يبتدئ من الجسد. ولذلك يُركّز القديس بولس على ضبط الجسد: «أقمع جسدي وأستعبده، حتى بعدما كَرَزْتُ للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١ كو ٩: ٢٧)، وإماتة الأعضاء التي على الأرض: «أमितوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الرديّة، الطمع الذي هو عبادة الأوثان» (كو ٣: ٥).

تجديد الذهن:

+ «ولا تُشاكلوا هذا الدهر، بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم».

ليس معنى «ولا تُشاكلوا هذا الدهر» أن ترتفع عن صغائر هذا العالم؛ ولكن ألا تقتصر عبادتنا عند مستوى العبادة الطبيعية الشكلية الظاهرية فقط؛ إذ أن العبادة الحقيقية فيها ارتقاء وسمو، أي «تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم». هنا دخلنا إلى التجديد في الحياة الروحية، وهي تُشير إلى عمل الروح القدس داخل قلب الإنسان وذهنه.

❖ هنا تغيير الشكل أو الذهن من الوضع الطبيعي العادي إلى الوضع فوق الطبيعي وغير العادي. فتغيّرنا من الشكل الطبيعي إلى تجديد الذهن، هو عمل الروح القدس والإنجيل.

اختبار إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة:

+ «... لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة».

عندما يتغير الإنسان عن شكله بتجديد ذهنه بمعونة الروح القدس والإنجيل؛ يتبدى يتعرف على إرادة الله في جدّ ذاتها. وفي المفهوم الروحي العملي، يختبر الإنسان تطبيق وصايا الإنجيل على نفسه أولاً، ومن هنا تأتي الخبرة الروحية المتراكمة.

❖ وما هي الخبرة الروحية؟ هي النتيجة المتحصّلة من تطبيق وصية إنجيلية على حياة الإنسان بوعي، ثم انطباع مقدار ما اكتشفه الإنسان ذهنياً وروحياً نتيجة تطبيق هذه الوصية على قلبه وأعماقه. ومن هنا تتكوّن الخبرة الروحية.

لقد سبق الله وخلقنا على صورة ابنه، «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» (أف ١: ٤)، ثم أخذنا من المسيح صورتنا الجديدة. فعندما يتسامى الإنسان في حياته الروحية ويحدث تجديد لذهنه، ينتقل من مجرد إنسان عادي طبيعي قد يقرأ الإنجيل كما لو أنه يقرأ أي كتاب عادي مثل باقي الناس، إلى إنسان روحاني قد «فَتَحَ الله ذهنه ليفهم الكُتُب» (لو ٢٤: ٤٥)، وقد أثار الروح القدس عقله كاشفاً له أعماق وأسرار الإنجيل.

هنا يتبدى الذهن في التجديد والتغيير من المستوى الطبيعي العام للعالم وأركان هذا العالم في الفهم والمعرفة إلى مستوى البصيرة والاستنارة الروحية التي تصل به إلى معرفة الحق: «نعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق» (١ يو ٥: ٢٠)، «مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا

كيف تناجر بوزناتنا الروحية؟ - ٥٩

ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين...» (أف ١: ١٨، ١٩).

❖ وعندما يتجدد ذهن الإنسان، يتبدى يكشف إرادة الله من ناحيته هو. يكشف إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة بالنسبة له، فلا يعود بعد يثن في نفسه أنه ينقصه شيء. وعندما يتجدد ذهنه وينمو روحياً، يشعر في داخله بأن الله غني وسخي جداً في الهبات والعطايا، وأن إرادة الله فعلاً من نحوه هي "إرادة صالحة مرضية كاملة".

هنا بداية كشف المواهب، بداية كشف القدرات والإمكانات التي استودعها الله في كيان الإنسان. فيبتدى الإنسان يُقدّم الشكر والتمجيد لاسم الله الذي وهبه كل شيء بلا كيل وبلا حدود.

❖ بداية الطريق الروحي هو أن يفتح قلب الإنسان وذنه على استعلان الأمور الروحية، ويتغير عن طبيعة هذا الدهر وطبيعة مطالب هذا الدهر، ويكتشف مواهب الله ونعمه التي استودعها في أعماقه، وكذلك يعرف سر المسيح «المُذخَر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو ٢: ٣)، والذي قال عنه بولس الرسول: «الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح: أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل» (أف ٣: ٦، ٥).

الإنسان الروحي لابد أن يرتقي إلى التعقل:

+ «فإني أقول بالنعمة المُعطاة لي، لكل مَنْ هو بينكم: أن لا يرتقي فوق ما ينبغي أن يرتقي، بل يرتقي إلى التعقل».

❖ لا يصحُّ على الإطلاق عندما يبتدى الإنسان حياته الروحية ويُنعَم

ببعض التعزية والسلام، أن يعتقد في نفسه أنه قد بلغ إلى عنان السماء، وأنه قد انكشفت له أسرارُ إلهية، وأنه قد اقتني الكثير من المواهب. هنا يبتدئ هذا الإنسان «يرتني فوق ما ينبغي أن يرتني»، ويطلب أموراً روحية تعلو على قامته. فإن لم يتضع الإنسان، ويعرف حقيقة وضعه، وحدود قامته؛ فإن الذي عنده يؤخذ منه (مت ٢٥ : ٢٩)!

ما هو "التعقل"؟

عندما يقول بولس الرسول: «بل يرتني إلى التعقل»، فإنه يظل متمسكاً بالقاعدة العقلية. والرب يسوع عندما أحاب على تساؤل أحد الكتبة عن «آية وصية هي أول الكل؟»، ثم سمع تعليق هذا الكاتب، «فلما رآه يسوع أنه أحاب بعقل، قال له: لست بعيداً عن ملكوت الله» (مر ١٢ : ٢٨-٣٤).

والقديس بولس أيضاً يقول: «لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس، مُعلّمة إيانا أن نُنكر الفجور والشهوات العالمية، ونعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر» (تيطس ٢ : ١١). ويتكلم أيضاً عن المرأة أنها «ستخلص بولادة الأولاد، إن تبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل» (١ تي ٢ : ١٥).

هذا هو منهج بولس الرسول ومنهج الآباء، وهو منهج روحي غير قابل للتعديل أو التغيير: "ألاً يرتني الإنسان فوق ما ينبغي أن يرتني، بل يرتني إلى التعقل". فما قد أُعطي لكل إنسان من إمكانيات ومواهب هي على قدر طاقته، وما يُطلب منه هو على مستوى ما قد أخذه من إمكانيات، فلا يرتني إلى ما هو أعلى مما وهب له، أو يتعدى حدود

ما قد بلغه من قامة روحية!

لكل واحدٍ مقدارٌ من الإيمان:

+ «كما قَسَمَ الله لكل واحدٍ مقداراً من الإيمان».

❖ فعلى قَدْرَ إيمان كل إنسان على قَدْر ما يُوَهَّب له من مواهب. فالنعمة أُعْطِيَتْ بالتساوي للجميع (مَثَلُ الأَمْنَاءِ)؛ أما المواهب والإمكانات فقد وُهِبَتْ لكل واحد على قدر طاقته (مَثَلُ الوزنات). فالإيمان مُقَدَّمٌ للجميع لأن الله «يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يُقْبَلُونَ» (١ تي ٢: ٤)، لكن ليس الكل يؤمنون «لأن الإيمان ليس للجميع (وفي الترجمة العربية الجديدة: ”فما جميع الناس من المؤمنين“)» (٢ تس ٣: ٢)، وليس كل المؤمنين على درجة واحدة من الإيمان. وحتى إذا آمن إنسان فإيمانه قد يختلف عن إيمان إنسان آخر، بناءً على درجة قبوله واستيعابه لهذا الإيمان، وعلى ضوء هذا القبول يكون مقدار الإيمان: إن في قوة أو في ضعف.

نحن أعضاء في جسد واحد في المسيح،

ونُكَمِّلُ بعضنا بعضاً:

+ «فإنه كما في جسد واحد لنا أعضاء كثيرة، ولكن ليس جميع الأعضاء لها عملٌ واحد، هكذا نحن الكثيرون: جسدٌ واحد في المسيح، وأعضاء بعضنا لبعض، كل واحد للآخر».

❖ إن عبارة «كل واحد للآخر»، تنفي عن أي عضو في جسد المسيح الانفرادية والانعزالية والانكفاء على الذات، أو أن يسلك كل عضو كما يريد لمنفعته الذاتية متغاضياً عن منفعة بقية الأعضاء؛ ولكنها

تؤكد على أننا كأعضاء نُكْمَل بعضنا بعضاً؛ وكذلك كل موهبة يكون قد أخذها أي عضو من أعضاء الجسد هي أولاً لتكميل مواهب بقية الأعضاء، وثانياً لمنفعة بقية الأعضاء.

فالإنسان لا يمكنه أن يحيا منفرداً أو مكتفياً بذاته، وإلاّ ينقطع عن بقية القطيع، أو يفصل عن بقية أعضاء الجسد؛ كما أن المواهب التي يأخذها أعضاء الجسد لا تعمل منفردة، ولكنها تكتمل ببقية مواهب الأعضاء الأخرى، وكذلك تُكْمَل مواهب بقية الأعضاء.

النعمة المَعطاة للجميع هي واحدة،

أما المواهب فهي مختلفة:

+ «ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المَعطاة لنا».

❖ لا بد أن ندرك ونعي أن النعمة التي أعطاها الله لنا في المسيح يسوع، هي نعمة واحدة (مَثَلُ الأَمْناء)، وهي عطية الله المجانية، وقد أعطاها بالتساوي للجميع. أما المواهب التي يمنحها الله لنا فهي متعددة (مَثَلُ الوزنات)، ويهبها الله لكل واحدٍ منا على قدر طاقته واستيعابه لهذه المواهب.

+ «أنبؤةً فبالنسبة إلى الإيمان».

❖ إن الموهبة التي تُعطى لكل واحد تختلف في درجة استعلاها من شخص إلى آخر، وهذا يرجع إلى مقدار الإيمان الذي يملأ قلب الشخص المُتقبِّل للموهبة. ولذلك نجد نبياً تُستعلن فيه ومن خلاله موهبة النبوءة بدرجة قوية جداً مثل "إشعياء عظيم الأنبياء"، ونبياً آخر تُستعلن فيه النبوءة بدرجة متوسطة أو بدرجة أقل؛ هذا كله راجع إلى مستوى الإيمان

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٦٣

الذي بلغه هذا النبي أو ذاك.

فكلما زاد الإيمان وقوي، كلما زاد استعلان الموهبة وتوهُّجها. فالموهبة تحتاج إلى إضرام وعدم إهمال، كما يوصي بولس الرسول تلميذه تيموثاوس: «لا تهمل الموهبة التي فيك» (١٤ : ٤).

نقرأ عن ”الأنبياء الكبار“ و”الأنبياء الصغار“، هنا أودُّ أن أوضح: إن ما أُطلق على بعض الأنبياء أنهم كبار، والبعض الآخر أنهم صغار، ليس ذلك بالنسبة لقيمتهم أو سمو قانتهم الروحية؛ وإنما هو بالنسبة للأسفار التي كتبوها، وذكروا فيها نبؤاتهم!

+ «أم خدمة ففي الخدمة، أم المُعلِّم ففي التعليم، أم الواعظ ففي الوعظ».

هذه كلها مواهب مختلفة، وتُعطى لبعض أعضاء جسد المسيح لمنفعة بقية الأعضاء. وهنا يضع بولس الرسول منهجاً متكاملاً لأصحاب المواهب عموماً، بمعنى أنه لا يوجد عضو من الأعضاء مستثنى من مواهب يمنحها الله له. فهي مواهب متعددة وكلها تُكَمِّل بعضها البعض، فالنبوة تختلف عن الخدمة، والخدمة عن التعليم، والتعليم عن الوعظ.

❖ ولا يستطيع إنسان أن يدَّعي أنه لم يأخذ أية موهبة، كما أنه لا يقدر أن ينتقل من موهبة إلى أخرى من تلقاء نفسه، ولا يمكنه أن يشتكي أنه لم يأخذ مواهب مثل ما أخذه أعضاء آخرون؛ ولكن «ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة، يخدم بها بعضكم بعضاً، كولاء صالحين على نعمة الله المتنوعة. إن كان يتكلَّم أحد فكأقوال الله. وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله، لكي يتمجِّد الله في كل شيء بيسوع

المسيح، الذي له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين، آمين» (١بط ٤: ١٢، ١١).

ضوابط النعمة:

١. «المُعطي فيسخاء».

كما قلنا سابقاً، فإن القدرات والمواهب الروحية تُعطى لكل واحد على قدر طاقته. والقديس بولس يضع ضوابط لهذه المواهب، أستطيع أن أقول إنها "ضوابط النعمة".

❖ أول هذه الضوابط: «المُعطي فيسخاء». فالعطاء عموماً لا يبد أن يُقدّم من الجميع، مهما كانت حالة الإنسان الاجتماعية أو الروحية، مهما كان غنياً أو فقيراً، وقد ذَكَرَ الإنجيل قصة الأرملة الفقيرة التي رآها المسيح وهي تُلقِي في الخزانة فَلَسَّيْن، فقال لتلاميذه: «إن هذه الأرملة الفقيرة قد أَلْقَتْ أكثر من جميع الذين أَلْقَوْا في الخزانة، لأن الجميع من فَضَّلْتَهُم أَلْقَوْا. وأما هذه فمَنْ إِعْوَازَهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا» (مر ١٢: ٤١-٤٤).

"المُعطي" هو إنسان يريد أن يُقدّم باستمرار، يسلب نفسه ويُعطي الآخرين. ولكن لو انتقلنا بموهبة "العطاء" إلى مستويات أعلى، فلا بد هنا من "عمل النعمة". وكما قلنا سابقاً لا بد أن نتاجر فيما أخذناه من وزنات أي مواهب وقدرات ومهارات.

فالعطاء قدرة، وليس كل إنسان له المقدرة على العطاء مثل الآخر. ولكن ما ركّز عليه القديس بولس ليس العطاء فقط، ولكن "العطاء بسخاء". ويوجد أناس ليس لديهم القدرة على العطاء. ويوجد أناس كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٦٥

آخرون إذا أعطوا أحداً فلا بد لهم أن يأخذوا العِوض: كرامة، مديحاً، مجداً... إلخ.

العطاء نفسه في حدّ ذاته صعبٌ، لأنه قدرة، والقدرة هي وزنة تُعطى للإنسان. ومن المفروض أن يُتاجر الإنسان بهذه الوزنة التي أُعطيت له. العطاء وحده فقط سلبى، أما السخاء في العطاء فهو إيجابى. والقديس بولس لكي لا يقف بالموهبة عند المقدرة فقط أو الطاقة العادية أو الطبيعية للإنسان؛ وضع لها ضابطاً وهو "السخاء".

❖ والسؤال الآن: هل إذا أُعطيتَ أحداً تُعطي من كل قلبك وبسخاء، أم تجد في داخلك ما يعوقك ويمنعك من العطاء بسخاء؟! إذا وجدتَ في داخلك ما يعوقك عن العطاء بسخاء، فهذا يعني أنك مثل صاحب الوزنة الواحدة الذي دفن فضته في الأرض أي في الأمور الجسدية، وتكون القدرة التي أخذها لا تتعدى مستوى المهارة البشرية: كيف تقتني لنفسك أضعافاً من وراء هذا العطاء؟ كيف تكتسب كرامة ومديحاً من الناس من جراء هذا العطاء؟ ولذلك هناك كثيرون يعطون لكي يأخذوا المثل أو أضعاف ما أعطوا.

❖ ولذلك وضع بولس الرسول ضابطاً أو منهجاً للعطاء وهو "السخاء". وهذا الضابط أي "السخاء" وُضِعَ لكي يكشف النفس البشرية، وفي نفس الوقت يُنبه الإنسان الروحاني لكي يحفظ الموهبة التي أُعطيت له حتى لا تؤخذ منه: «لأن كلَّ مَنْ له يُعطى فيزداد، ومن ليس له فالذي عنده يُؤخذ منه» (مت ٢٥: ٢٩)، وأيضاً لا بد أن يُتاجر بها ويربح فوقها. وعندما يأتي وقت الحساب (كما في مثل الوزنات) يُسلّم

الإنسان الربح مع رأس المال.

❖ فالعطاء قدرة أعطاهها الله لكل إنسان في الوجود، ولكن هناك مَنْ يُقْصِي هذه القدرة نهائياً عن حياته بحقه وجشعه، وهناك آخرون يستخدمها في حدود العطاء فقط أي كطاقة بشرية، وهناك إنساناً روحاني يتعامل معها ويستثمرها لحساب الله. ويمكن أن يكون هذا الإنسان الروحاني إنساناً فقيراً جداً، ومع ذلك فهو سخيٌّ جداً في عطائه. هذا هو رجل الله، الذي يعمل على مستوى الروح القدس، ونعمة الله فعالة جداً ومثمرة في حياته.

❖ هذا هو المنهج الروحي المتكامل الذي وضعه القديس بولس، لكي ينقل الإنسان من المستوى الأقل إلى المستوى الأعلى، من الجسديات إلى الروحيات، من الظلمة إلى النور!

٢. «المُدبِّر فباجتهد».

”المُدبِّر“ في اللغة اليونانية ومنها أخذت اللغة القبطية هو ”إيكونوموس“، وهي كلمة مشتقة من ”إيكون“ أي ”بيت“، بمعنى إنسان واضع نظام وقانون لبيته. فالكلمة تعني ”مُدبِّر بيته“. فالمُدبِّر هو مَنْ استؤمن على أموال ليدبِّر صرفها، أو على بشر ليقودهم، أو أولاد ليُعَلِّمهم، أو إخوة ليرعاهم.

المُدبِّر هو إنسان يبذل نفسه من أجل الآخرين، وهي عطية من الله للإنسان. فالأُم تُدبِّر بيتها وتربِّي أولادها حسناً، والأب يَكْدُ ويتعب ويُنفق على بيته وعلى أولاده، كل هذا على المستوى الطبيعي. ولكن القديس بولس وضع ضابطاً للمُدبِّر أن يكون ”باجتهد“، أي على

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٢٧

مستوى منفعة وخير الآخرين، بحيث لا يخسر أو يفقد أحداً ممن يكونون تحت تدبيره. هنا تحميل المُدبِّر مسئولية إيجابية، وهي منفعة الآخرين ونموهم.

❖ يوجد مُدبِّر يتعامل مع الآخرين على أساس أنها وظيفة يؤدِّيها بطريقة أو بأخرى، فهنا توقّف عند حدود التدبير فقط ولم يصل إلى حدّ الاجتهاد. ويوجد آخر أُعطيَتْ له موهبة التدبير، وهو قد أظهرها على مستوى الأبوة للآخرين: يُنذر الذين بلا ترتيب، يُشجّع صغار النفوس، يَسند الضعفاء، يتألّى على الجميع: «أنذروا الذين بلا ترتيب. شجّعوا صغار النفوس. أسندوا الضعفاء. تأنّوا على الجميع» (١ تس ٥ : ١٤)، يُقوم الأيدي المسترخية والرُكَب المُخلّعة (عب ١٢ : ١٢)، يُعطي النفس التي أمامه أقصى ما يمكنه أن يُعطيها. فهو لا يهدأ أو يتوانى عن تدبير النفوس باجتهداد. هذه هي الإيجابية في إظهار الموهبة التي تُعطى للإنسان.

❖ فالاجتهاد في المفهوم الروحي، هو "منفعة وخلص الآخرين". وبولس الرسول عندما يتكلّم عن "الإيكونوموس" أي "المُدبِّر"، فهو يتكلّم عنه في حدود المفهوم الكنسي أو المفهوم الروحي.

٣. «الراحم فبرور».

الإنسان الرحوم هو الذي يتعاطف مع الآخرين، ويحاول أن يُلبّي طلباتهم واحتياجاتهم، ويبدل من أجلهم، ويدافع عنهم. ولكن بولس الرسول وضع الضابط الروحي للرحمة وهو "السرور"، لكي ينقل عمل الرحمة من المستوى الجسدي إلى المستوى الروحي، من مستوى الكفاف إلى مستوى السخاء والبذل الروحانيين.

❖ «الراحم فبسرور». عندما يدخل السرور في عمل الرحمة، تكون الرحمة مصدرها إلهياً، وتكون عملاً روحياً. فالسرور ضابطٌ لإمكانية الرحمة. إذا كانت الرحمة مُقدّمة فقط كواجب وبدون مسرّة، فهي مجرد طاقة بشرية؛ لكن عندما تُقدّم الرحمة بسرور، فهنا تنتقل من قدرة بشرية إلى موهبة روحية، من طاقة طبيعية إلى عطية إلهية.

❖ هكذا رأينا كيف وضع بولس الرسول ضوابط لكل قدرة مُنحت للإنسان لكي تتحوّل من مجرد طاقة أو قدرة بشرية إلى موهبة روحية. فالعطاء لا بد أن يكون بسخاء، والتدبير ينبغي أن يكون باجتهاد، أما عمل الرحمة فلا بد أن يؤدّى بسرور. هذا هو المنهج الروحي المتكامل أو السلوك المسيحي الحقيقي!

٤. «الحبة فلتكن بلا رياء».

❖ في الحقيقة، إن داء الحبة هو الرياء، وهو يُعتَبَر إغواءً للمحبة. فالحبة التي تُقدّم مقابل ثمن، لا يمكن أن تُسمّى محبة؛ وكذلك الحبة المُصطنعة ليست هي المحبة الحقيقية أبداً. ولذلك أراد بولس الرسول أن يؤمّن المحبة ضد التزييف، ويجعلها تسلك في الطريق الروحاني، فوضع لها ضابطاً هاماً وهو أن تكون "بلا رياء"، أي محبة صادقة من قلب طاهر وبشدّة دون انتظار المقابل أو العوّض!

والصدّق والحق في الحبة نابعان من الله نفسه، من الروح القدس. إذن، الحبة إن لم تكن تستمد قوتها من الله، أو تأخذ طبيعتها من طبيعة الله نفسه: «الله محبة»؛ فإن الرياء يلتصق بها حتماً مهما كان شكلها!

إذا أحبّ الإنسان لكي يُحَبَّ، أو يُكرّم، أو يزداد مجدداً؛ فهذه المحبة

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٦٩

مُقدِّمة لكي يكون لها ثمن. ومعنى ذلك أنها تُقدِّم أو تعمل من وراء الستار بوجهٍ آخر، وهذا هو الرياء.

الحبة لكي تكون إلهية وروحانية، لا بدَّ - كما وَضَعَ لها بولس الرسول هذا الضابط - أن تكون "بلا رياء"، أن تكون "بإخلاص" أي محبة مُخلصة من قلب طاهرة وبشدة.

❖ فالقديس بولس صاغ لنا هذا المنهج الروحي المتكامل، فكل وصية وضع لها ضابطاً لكي ينقلها من مستوى الجسد والتراب إلى مستوى الخلود والحياة الأبدية، ومن حدود الزمن الميت إلى اللانهاية!

٥. «كونوا كارهين الشر، مُلتصقين بالخير».

إن عدم فعل الشر ليس فضيلة في حدِّ ذاته، فهذا أمرٌ سلي؛ ولكن لا بدَّ أن تكون كارهاً للشر. وإذا كره أحدُ الشر، فلا بدَّ أن يكون "ملتصقاً بالخير".

إن أدركنا الخير، فتلقياً نكره الشر. وإذا أدركنا صلاح الله، فسوف ندين أنفسنا ونوبِّخها على أخطائها وضعفاتها.

❖ «كونوا كارهين الشر»: إذا أردت أن تقيس مقدار توبتك فهذا يكون بمقدار كُرهك للشر، كرهك للبُغضة والعداوة والحقْد والجسد... إلخ. إذا بلغت إلى درجة كُره الشر، فهذه هي الإيجابية في تطبيق الوصية. فكُره الشر هو منتهى الخير.

❖ «... ملتصقين بالخير»: هذا هو المقابل والمساوي لكُره الشر، ولكنه هو المصدر. فلا يمكن لإنسان أن يكره الشر إلا إذا التصق بالخير.

فالمطلوب في البداية أن يَغضب الإنسان نفسه على عمل الخير مهما كان، إلى الدرجة التي فيها يكون مُلتصقاً بالخير ولا يمكن أن يتركه أبداً.

الالتصاق بالخير مصدر كره الشر. لا يمكن أن تُكمل توبتك إلا إذا التصقت بالخير، وهذه هي الإيجابية البديعة. إذا داوم الإنسان على فعل الخير، في كل وقت وفي كل حين، وغَصَبَ نفسه على الاستمرار فيه، فإنه حتماً سيلتصق بهذا الخير، وإذا التصق بالخير فتلقائياً سيكون الشر مكروهاً لديه!

❖ هناك أمرٌ هام يجب التنبيه عليه، وهو إذا كره الإنسان الشرَّ من أعماقه، والتصق بالخير من كل قلبه، ستكون النتيجة - كما سيُوصي بولس الرسول فيما بعد - أنه "لا يُجازي أحداً عن شرٍّ بشر". فالعمل الداخلي يكون أولاً ثم يبدأ العمل الخارجي. فمن غير الممكن أن يسبق العمل الخارجي العمل الداخلي، وإلا سيكون الإنسان كمن يُلطم الهواء. يستحيل إصلاح السلوك الخارجي، إن لم يتجدد قلب الإنسان ويأخذ قوته ومساره من ينابيع النعمة المتدفقة. إذا استقرَّ الإنسان في أعماقه على بُغضة الشر وكرهه، وإذا التصق بالخير أولاً وأحبه من أعماقه؛ حينئذ يكون تنفيذ الوصية سهلاً وليس ثقيلاً.

٦. «وَأَذِينْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِالْحُبَّةِ الْأَخَوِيَّةِ».

يمكن للمحبة أن يحدث لها تزييف، وتكون صادرة عن دوافع شريرة ونجسة، وهذه ليست المحبة الحقيقية. ولذلك لا بد للمحبة أن تؤمن، فالودُّ يؤمن ويضمن المحبة الأخوية، تماماً مثلما قال بولس الرسول سابقاً: «المحبة فلتكن بلا رياء».

الودُّ يُعَبِّرُ عن شركة أو صلة أو اتصال، أما المحبة فهي عاطفة. ولكني أحذّر من المحبة الكاذبة المزيفة التي يمكن أن تُثيّه الإنسان في طريقٍ فاسد، وتغشنا وتعوق حياتنا الرهبانية والروحية كلها.

❖ المحبة لا بد أن تكون على أساس الغاية. وما هي الغاية من المحبة؟ الغاية هي أن تُرضي قلب المسيح ونتحد به. المحبة تنتهي بالشركة، والشركة قوامها المحبة. المحبة تُصل كل عضو بالآخر. المحبة هي وجه عملة وجهها الآخر هو الصليب: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦)، «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣).

❖ إن غاية الحياة المسيحية هي الاتحاد بالله أو الشركة مع الله في المسيح يسوع ربنا. الاتحاد أو الوحدة ديناميكية وليست عاطفية. إن فعل الوحدة أو الاتحاد هو المحبة. فالمحبة هي التي تُحرّك الوحدة وتُكملها وتُتمّمها.

كل الوصايا تنبع من المحبة، والمحبة في حدّ ذاتها هي تكميل كل الوصايا: «من أحب غيره فقد أكمل الناموس. لأنّ "لا تزن"، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تشته"، وإن كانت وصية أخرى، هي مجموعة في هذه الكلمة: "أن تحب قريبك كنفسك". المحبة لا تصنع شراً للقريب، فالمحبة هي تكميل الناموس» (رو ١٣: ٨-١٠).

❖ الوجه الآخر للمحبة هو الصليب. بالمحبة والصليب تُكمل الوحدة أو الاتحاد أو الشركة.

الحبة الحقيقية تفوق أية منفعة جسدية أو عاطفية، لأن الحبة هي فعل بذل وعطاء. الحبة تُقدّم دون النظر إلى المقابل أو دون البحث عن المنفعة على الإطلاق. فالآية: «وَأَدِّينَ بَعْضُكُمْ بِحُبِّهِ الْأَخَوِيَّةِ»، معناها أن الصّلة التي تربطنا بعضنا ببعض هي صلة دائمة مبنية على أساس المحبة الباذلة التي تنتهي بوحدانية الروح في المسيح يسوع. إن أعظم تأمين للمحبة هي أن تنتهي بنا إلى الصّلة، إلى الاتحاد، إلى الشركة.

٧. «مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بِحُبِّهِ الْكَرَامَةِ».

❖ المحكُّ الخطير لعمل النعمة في الإنسان، والذي هو علامة أكيدة أن الروح القدس هو العامل وأنّ النعمة هي الفعّالة؛ هو أن تُقدّم بعضنا بعضاً في الكرامة. فمن المعروف أن أشقّ ما يمكن أن تُعانيه النفس البشرية هو أن تُقدّم الآخرين عليها في الكرامة. وهناك حالة واحدة يمكن فيها أن يُقدّم الإنسان الطبيعي غيره في الكرامة، وذلك لكي يزداد هو كرامةً ومجداً، ويكون هذا العمل عملاً جسدانياً.

وفي الوقت الذي ينتفع فيه الإنسان العادي ويزداد كرامةً عند تقديمه الآخرين عليه، فإنه سيستمرّ هذا التصرّف، ويُداوم عليه، وسوف يجني من وراء ذلك انتفاخ الذات؛ بينما الروح لا تنتفع من هذا التصرّف بل تنحصر وتضعف.

إن هذه الوصية: «مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بِحُبِّهِ الْكَرَامَةِ» هي الصورة الموضّحة للمتمكّن الأخير الذي قال عنه الرب يسوع: «مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلَا تَتَكَيَّ فِي الْمَتَكِّ الْأَوَّلِ، لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ. فَيَأْتِي الَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولُ لَكَ: أَعْطِ مَكَاناً لِهَذَا. فَحِينَئِذٍ

تبتدئ بـجـل تأخذ الموضع الأخير. بل متى دُعيتَ فاذهب وأتكم في الموضع الأخير، حتى إذا جاء الذي دعاك يقول لك: يا صديق، ارتفع إلى فوق. حينئذ يكون لك مجدٌ أمام المتكئين معك. لأن كلَّ مَنْ يرفع نفسه يتَّضع، ومَنْ يَضَع نفسه يرتفع» (لو ١٤: ٨-١١).

❖ فـ «مُقدِّمين بعضكم بعضاً في الكرامة»، معناها إصرارٌ على أخذ المتكأ الأخير بلا عَوْض، ليس على المستوى الشكلي أو الظاهري؛ لأنه ربما يجلس إنسانٌ ظاهرياً في الموضع الأخير أو آخر الكل، ولكنه في أعماق نفسه يفعل ذلك لكي ينال كرامةً من الآخرين، كنوعٍ من الاتضاع المزيف الكاذب، ولكنه كستارٍ لجد الذات وانتفاخها.

❖ فالمتكأ الأخير وتقديم الآخرين في الكرامة، هو مفهومٌ عملي لإنكار الذات، أو لجد الذات، وهو تطبيقٌ عملي للمحبة الصادقة غير المُعرِضة. إن تقديم الإنسان الآخرين في الكرامة هو مقياسٌ حقيقي لمقدار محبة الآخرين، أي هو برهانٌ للمحبة.

إن تقديم الآخرين في الكرامة، هو محكٌّ شاقٌّ جداً على النفس البشرية؛ فإذا أنت لحتها في إنسان، فاعلم أنك سوف تَشْتُم منه رائحة المسيح الذكية، وسوف ترى فيه نموذجاً حياً للإنجيل، وتطبيقاً عملياً لوصية المسيح ظاهرة وفعالة فيه.

٨. «غير مُتكاسلين في الاجتهاد».

كما قلنا سابقاً، يضع القديس بولس ضابطاً لوصية الاجتهاد، أن يكون بغير تكاسل، وهذه هي سمة من سمات عمل الروح القدس في الإنسان، أنه يعمل داخل الإنسان بنشاط وحرارة. فالإنسان الروحي

عندما يُجاهد بمعونة نعمة الله، يكون جهاده بغير كسل أو توانٍ.

وفي قصة القديس بولا الطموهي (وتذكر نياحته في اليوم السابع من شهر بابه) نقراً: "إنه كان يميل منذ حدثه إلى العزلة والانفراد. فقد قَصَدَ جبل أنصنا وسكن به وأقام معه هناك تلميذه حزقيال، هذا الذي شهد بفضائله. ومن ذلك أنه من فرط محبته للمسيح له المجد، أضنى جسده بالزهد والتقشُّف والأصوام والصلوات الكثيرة حتى استحقَّ أن يظهر له المسيح ويُطوِّبه على سلوكه في هذه الحياة مسلك الكاملين الذين جاهدوا ضد الجسد والعالم والشیطان حتى تغلبوا عليهم". وتقول القصة أن المسيح قال له: "كفاك تعباً يا حبيبي بولا". فأجابه القديس: "كل هذا بعنايتك يا خالق البشر وفاديتهم، بموتك من أجلنا نحن الخطاة غير المستحقين". أما الرب يسوع فعزَّاه وقوَّاه.

❖ فالاجتهاد يكون بنفخة ومعونة من الروح القدس في الإنسان، كما يقول بولس الرسول: «الروح أيضاً يُعين ضعفاتنا» (رو ٨: ٢٦). فإذا كان الروح القدس يُعين ويُسند الإنسان في ألمه وضعفه ومرضه، فكم بالحري تزداد معونة ومؤازرة الروح القدس للإنسان الحريص المجتهد النشط غير المتكاسل.

الرب يسوع يقول: «الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير» (لو ١٦: ١٠). هنا الأمين والمجتهد في الأمور المادية ("القليل")، سيكون أميناً ومجتهداً في الأمور الروحية ("الكثير"). ولكن أكبر إعاقة تعوقنا عن التقدُّم هو أن نكون متكاسلين في تتميم واجباتنا البسيطة المتاحة لنا، ومن ثمَّ نكون متكاسلين في الاجتهاد.

❖ النشاط هو أحد علامات عمل الروح القدس في القلب، وفي الضمير، وفي الأعضاء أيضاً. فالروح القدس يسكن فينا: «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم؟» (١ كو ٣: ١٦)، «أم لستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله» (١ كو ٦: ١٩). فالروح القدس عندما يعمل في إنسان فإنه يرفع عنه الإحساس بثقل الجسد، وتعب الأعضاء، وكذلك الإحساس بمضي الزمن.

٩. «حارّين في الروح».

❖ لقد وضع بولس الرسول ضابطاً للإنسان الروحي، وهو أن يكون حارّاً في الروح، لأن بعض الروحانيين يفقدون حرارّتهم، وتعود روحانيتهم مرة أخرى إلى مستوى المهارة والإمكانية؛ فتضعف الحرارة وتتوارى الموهبة!

لم يقلّ القديس بولس: «كونوا في الروح» أو «كونوا عائشين في الروح»، وإنما أراد أن يضبط الحياة الروحية لئلا يحدث لها انتكاسة، فقال: «حارّين في الروح». لقد قال الرب يسوع للسامرية: «ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٤: ٢٣، ٢٤). وقد أضاف بولس الرسول على قول الرب، أن الساجدين لله بالروح والحق يجب أن يكونوا أيضاً «حارّين في الروح».

❖ فالسجود لله ليس فقط «بالروح والحق»، وإنما يكون بحرارة روحية، وإلا سيكون مجرد سجود بالجسد. فالمنهج الروحي الذي وضعه بولس

الرسول كضابط للحياة الروحية أن نكون "حارّين في الروح". فإذا فُتِرَت الحرارة الروحية في قلب الإنسان، فهذا معناه أنه ابتداءً يتقهقر قليلاً قليلاً.

❖ وفي سفر الرؤيا يقول الرب للقديس يوحنا الرائي: «واكتب إلى ملاك كنيسة اللاودكيين: هذا يقوله الآمين، الشاهد الآمين الصادق بداعة خليقة الله. أنا عارفٌ أعمالك، أنك لستَ بارداً ولا حارّاً. ليتك كنتَ بارداً أو حارّاً. هكذا لأنك فاترٌ، ولستَ بارداً أو حارّاً، أنا مُرْمِعٌ أن أتقيّأ من فمي» (رؤ ٣: ١٤-١٦).

فالإنسان إما أن يكون بارداً، ولكن باب التوبة مفتوح أمامه، فإذا تاب وندم عن خطاياه ورجع بكل قلبه إلى الرب، حينئذ تبتدئ الحرارة الروحية تدبُّ في حياته؛ أو يكون حارّاً في الروح، وتكون مسيرته الروحية ناجحة، والهدف أمام عينيه لا يَحِيد عنه، وينمو في القامة الروحية يوماً بعد يوم. أما إذا كان الإنسان فاتراً أي لا يتقدّم إلى الأمام ولا يرجع إلى الوراء، فإنه سيتوقّف عن المسير، لأنه يكون مكثفياً بما وصل إليه من قامة روحية أو نمو روحي.

لقد قال الرب: «جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت» (لو ١٢: ٤٩). فإن لم تكن هذه النار الإلهية مضطربة داخل قلبك، فإن المسيح لا يرتاح بعد فيك. أما إذا كانت هذه النار مضطربة داخل قلبك، فتق أن الرب ساكنٌ فيك، والروح يُضرم إمكانياتك ومواهبك. فلا بد أن تُضرم الموهبة التي فيك، التي أخذتها عندما مُسِحتَ بالميرون. فالموهبة قد أخذناها فعلاً، وصرنا مسئولين عن إضرامها يوماً بعد يوم.

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٧٧

أسس الحياة المسيحية - م ٧

❖ هذا الكلام الذي يقوله بولس الرسول ويكلّم به أهل رومية، هو في الحقيقة مُوجّه إلى الكنيسة في كل زمان ومكان، إلى كل إنسان بكل ما تشمله جميع الطبائع البشرية من تنوع.

١٠. «عابدين الرب».

ليتنا نتذكّر كلام الرب يسوع للسامرية: «الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). وفي الحقيقة، إنّ الإنسان الذي استعبد نفسه للرب يكون قد نال الحرية: «فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو ٨: ٣٦).

❖ هذه هي القاعدة الروحية: إنّ استعبدنا أنفسنا للرب، صرنا أحراراً له أو بالحري هو الذي يُحررنا؛ أما إذا حررنا نحن أنفسنا وتحلّلنا من التزاماتنا يستحيل أن نبقى عابدين لله بحق!

الإنسان الذي استعبد نفسه لله بملء إرادته ورغبته، تكون حياته الروحية مستقيمة وحارة، ويؤدّي كل واجباته بكل التزام: يصلي السواعي في أوقاتها، ويسجد أمام الله بكل تقوى وخشوع؛ وكما يقول مار إسحق: ”يقف الإنسان أمام الله بزيّ الصلاة“. و”زيّ الصلاة“ هو الحشمة والوقار والوقوف على القدمين بانتصاب بدون استرخاء... إلخ.

❖ عندما يقف العابد أمام الله بكل خشوع، وهو يضع في قلبه أنه عبدٌ أمام الرب، ويرفع يديه بمخافة، ويسجد إلى الأرض بكل وقار؛ حينئذ سينال فرحاً حقيقياً، ويقتني راحة لا ينالها إلاّ أولاد الله الذين تحرّروا من الخطية ومن سطوة الموت ومن الهلاك ومن الهاوية.

فكل صلاة نقدّمها للرب بكل وقار وبمخافة العبيد، نخرج من هذه الصلاة الواحدة بإحساس المحرّرين، بشعور أولاد الله الذين استؤمنوا على ميراث أبيهم السماوي: «ورثة الله ووراثون مع المسيح» (رو ٨: ١٧)، عوضاً عمّا كنّا فيه قبلاً كـ «أجنبيّين عن رعية إسرائيل، وغرباء عن عهود الموعد» (أف ٢: ١٢).

١١. «فرحين في الرجاء».

عابد الرب لا يكون مُعبّساً أو حزيناً أبداً، وإنما يكون فرحاً في الرب. "الرجاء" يختص بالمستقبل، بالآتي. والفرح الحقيقي لا يختص بأمور هذه الحياة الحاضرة لأن «العالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١ يو ٥: ١٩)، والمسيح نفسه قال: «يكفي اليوم شرّه» (مت ٦: ٣٤). فالزمان الحاضر مُتعبٌ جداً وليس فيه سعادة حقيقية، والفرح الحقيقي يختص بالزمان الآتي، بالمستقبل الأبدي. والمستقبل كله منحصّر في مفهوم الرجاء. نحن بالرجاء نحيا، وكما يقول بولس الرسول: «لأننا بالرجاء خَلَصْنَا. ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً، لأن ما ينظره أحدٌ كيف يرجوه أيضاً؟ ولكن إن كنّا نرجو ما لسنّا ننظره فإننا نتوقّعه بالصبر» (رو ٨: ٢٤، ٢٥).

❖ إن كنّا نرجو ونتمنّى الحاضر الذي نحياه الآن، فهذا ليس رجاءً أبداً؛ ولكننا نرجو غير المنظور، نرجو الأبدية، نرجو الحياة مع المسيح، نرجو أن نأتي «إلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، وإلى ربوات هم محفّل ملائكة، وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات، وإلى الله دَيَّان الجميع، وإلى أرواح أبرار مُكَمَّلين، وإلى وسيط العهد الجديد، يسوع، وإلى دم رَشٍّ يتكلّم أفضل من هابيل» (عب ١٢: ٢٢-٢٤).

نحن نعيش كل يوم في رجاء مجيء المسيح: «منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح» (تيطس ٢: ١٣)، «منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب» (٢ بط ٣: ١٢).

❖ الرجاء هو جوهر الإيمان، والإيمان هو «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عب ١١: ١). هذا هو الإيمان المسيحي: «الثقة بما يُرجى»، وإلا لا يُدعى إيماناً؛ أي الثقة بما نترجاه، بالحياة الأبدية، وقيامة الأموات، والمجيء الثاني للمسيح في مجد وبهاء: «متى أظهر المسيح حياتنا (في مجيئه الثاني المملوء مجداً)، فحينئذ يُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣: ٤).

❖ هذه الآية: «فرحين في الرجاء»، هي تأمينٌ للعبادة، لكي تستمر بحرارة وتنمو كل يوم. فإن لم يكن للعبادة فرح الرجاء؛ فحينئذ سوف تنحصر وتضعف، لأن الحاضر بكل أحزانه وأوجاعه كفيفٌ بأن يسلبنا الفرح الحقيقي، ويهبط بنا إلى الأرض وإلى التراب.

❖ نحن نحيا حياتين: حياة تتسرّب من بين أيدينا، خاضعة للزمن الميت؛ وحياة أخرى تمتدّ قدّام أعيننا.

❖ الرجاء الموضوع أمامنا في الحياة الأبدية اللازمية، هذا هو المستقبل السعيد الذي نسعى إليه. فأعيننا تتطلّع إليه، ونحن تمتدّ فيه بدون تراخٍ أو توانٍ: «نحن الذين التجأنا لئُمسك بالرجاء الموضوع أمامنا، الذي هو لنا كمرساة للنفس مؤتمنة وثابتة، تدخل إلى ما داخل الحجاب، حيث دخل يسوع كسابقٍ لأجلنا» (عب ٦: ١٩، ٢٠).

هذا الرجاء فيه المجد الذي سينتظرنا، والقيامة السعيدة التي سنحيهاها،

والتي نتمثلها كل يوم في صلواتنا، وفي تناولنا من الأسرار الإلهية، وفي مفاعيل المعمودية التي تعمل فينا كل يوم من موتٍ إلى حياة!

❖ «فرحين في الرجاء». لقد وضع بولس الرسول ضابطاً للرجاء، أن يكون بفرح. "الفرح" هو التأمين الحقيقي للرجاء. الفرح في الرجاء هو الفرح في الحياة الأبدية، ولا يمكن أن يتسحب إلى الأمور المادية. فالإنسان الذي له فرح مستمر في رجائه، يؤمن روحياته ضد الضعف والفتور. إنما إذا كان هذا الرجاء يغشاها اضطرابٌ أو خوف من المستقبل، فهذا يكون تعلقاً بالزمنيات وليس بالأبديات.

إذا كان الرجاء فيك يسنده الفرح الدائم، فاعلم أنك تحيا بالروح؛ أما إذا كان الرجاء يشوبه اضطرابٌ وقلق كل يوم، فاعلم أنك تحيا على المستوى المادي ولم تترق بعد إلى المستوى الروحي.

١٢. «صابرين في الضيق».

الضيق هنا يعني به بولس الرسول: الضيق الحاضر. وكما ذكرَ القديس يوحنا في سفر الرؤيا: «وسألني واحدٌ من الشيوخ قائلاً لي: هؤلاء المتسربلون بالثياب البيض، مَنْ هُمْ ومن أين أتوا؟ فقلتُ له: يا سيد أنت تعلم. فقال لي: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف» (رؤ ٧: ١٣، ١٤). فالذي استطاع أن يخلص من هذا الزمان الحاضر الشرير بكل ضيقاته وآلامه، فإنه سينجو حتماً من الضيقة العظيمة.

فلا بد لنا أن نواجه الضيق بالصبر. ولكن إن لم يكن لدينا الصبر فإننا لا نستطيع أن نحتمل الضيق. فالحاضر بكل ضيقاته نستطيع أن نعبره كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٨١

بالصبر؛ أما الفرح والسرور فسيغمرانا كثمرة لرجائنا في المستقبل السعيد.

❖ لقد وضع بولس الرسول وصية «فرحين في الرجاء» مقابل وصية «صابرين في الضيق»، وهي مقابلة عجيبة جداً؛ تماماً مثل إنسان يضع قدميه على الأرض، بينما عيناه مرفوعتان نحو السماء. فالإنسان الذي يحيا الحاضر ويصبر على ضيقات وآلام هذا الدهر، بينما يضع كل رجائه في الملكوت السعيد وفي الحياة الأبدية، فإنه سيغمره ويتنابه فرح لا يُنطق به ومجيد.

الإنسان الذي اختبر الفرح في الرجاء من السهل جداً عليه أن يصبر في الضيقات من أجل هذا الرجاء الموضوع أمامه، وحينئذ يدخله الفرح بالرغم مما يُعانيه من آلام. وبولس الرسول يقول: «لذلك أُسرُّ بالضيقات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح، لأني حينما أنا ضعيفٌ فحينئذ أنا قويٌّ» (٢ كو ١٢ : ١٠)، «الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأُكَمِّلُ نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده، الذي هو الكنيسة» (كو ١ : ٢٤). ويقول في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي: «إذ قبلتم الكلمة في ضيق كثير، بفرح الروح القدس» (١ : ٦).

الرب يسوع حمل الصليب وصُلبَ عليه وقَبِلَ الآلام بإرادته من أجل السرور الموضوع أمامه: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومُكَمِّلَه يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مُستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢ : ٢).

❖ فعندما تواجهنا الضيقات فليس أماننا لكي نجتازها سوى الصبر،

وتمجيد اسم الله، والشكر الدائم له على كل حال ومن أجل كل حال وفي سائر الأحوال؛ وحينئذ يدخلنا الفرح رويداً رويداً، ويغمرنا بلا كيل ولا حصر، عَوْضَ احتمالنا وصبرنا. رجاؤنا في الحياة العتيدة يجعلنا لا نتزعزع أمام الضيق الحاضر؛ فإذا صبرنا في الضيق فحتماً سيغمرنا الفرح في الرجاء.

١٣. «مواظبين على الصلاة».

المواظبة على الصلاة هي تأمينٌ للصلاة نفسها من الضعف ومن الفتور. لقد حدّد القديس مار إسحق ثلاثة أمور يحتاجهم الراهب - بصفة خاصة - في مسيرته الروحية: ١. المواظبة على الصلاة، ٢. الغرض المستقيم، ٣. الأب الروحي. ويقول إنه إذا ضعفت الصلاة، وضاع الهدف المستقيم، يمكن للأب الروحي - إذا أطاعه الإنسان - أن يُعيد إليه حرارة الصلاة واستقامة الهدف.

❖ المداومة على الصلاة يُظهر عمل الروح القدس في قلب الإنسان. فالروح ينخس قلب الإنسان ليؤدّي صلواته، فإذا استجاب الإنسان لعمل الروح القدس، فحينئذ يُوهَب القدرة على الاستمرار في الصلاة بالرغم من أتعابه وأوجاعه وأمراضه؛ فينتابه شعور بالفرح الغامر وتذبُّب في أعماقه حرارة روحية تُعينه على المداومة على الصلاة. أما إذا لم يَسْتَجِب الإنسان لنخس الروح في قلبه، بحجة التعب أو المرض أو أي عُذر آخر؛ فحينئذ ينتابه الكسل والفتور وعدم المقدرة على الصلاة أو الاستمرار فيها.

❖ فالمواظبة على الصلاة هي الضابط الروحي للإمكانية أو الطاقة الروحية الموهوبة لنا من الله. فإحدى المواهب أو الطاقات التي غرسها

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ٨٣

المسيح في طبيعتنا الجديدة، هي الاشتياق إلى الصلاة. فالصلاة هي اشتياق الإنسان للاتصال بالله.

بالصليب سدَّ المسيح الهوة التي بيننا وبين الله: «أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً، ونقض حائط السياج المتوسط، أي العداوة» (أف ٢: ١٣-١٥)، «أي إنَّ الله كان في المسيح مُصالحاً العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم، وواضعاً فينا كلمة المصالحة» (٢ كو ٥: ١٩)، «وأنَّ يُصالح به الكل لنفسه، عاملاً الصُّلح بدم صليبه، بواسطته» (كو ١: ٢٠). ومن هنا كان اشتياق الإنسان إلى الله، هذا الاشتياق الذي لا يُعبر عنه إلا بالصلاة.

فالمواظبة على الصلاة، معناها أنه يوجد صلة دائمة بين الإنسان والله. الصلة الدائمة بالله كفيلة بأن تجعلنا نصبر في الضيق بمقدار فرحنا في الرجاء.

لا توجد أوضاع محدَّدة لا بد منها للصلاة، فأنت تستطيع أن تُصلي وأنت في أي وضع، المهم أن تكون في حالة صلاة، مثلما يقول القديس مار إسحق: "إن لم تستطع أن تُصلي وأنت واقف، فُصلي وأنت راکع، أو وأنت جالس" (إن كنت مريضاً)، إنما لا تنام وأنت لم تُصل بعد.

ارفع قلبك إلى الله في أي وقت وفي أي موضع، وهنا يحدث الاتصال بالله؛ وحينئذ تحصل على قوة من الله تُعينك على أتعابك وأمراضك وضيقاتك.

❖ حدث أن أُصيبَت امرأة تقية بمرض السرطان الفظيع، واستمرت تُعاني وتحمَلُ آلاماً مُبرِّحة من هذا المرض العضال. ولكن بالرغم من

كل هذه الآلام كان وجهها بشوشاً لم يعبس أبداً، ولم يُصَبِّها الاكتئاب قط. واستمرت وهي في هذه الحالة الميثوس من شفائها تواظب على الصلاة، وثرثل المزامير وهي قعيدة لا تتحرك، وتداوم على قراءة الإنجيل باستمرار، والأكثر من ذلك بدأت تُعزِّي كل إنسان يأتي ليسأل عنها بكلمات النعمة الخارجة من فمها. واستمرت على هذا الحال إلى أن انتقلت من هذا العالم الفاني إلى الأبدية السعيدة.

الصلاة والمداومة عليها هي التي جعلت هذه المرأة الصالحة تُعبرُ محنة المرض دون أن تهتز أو تيأس أو يُصيبها الإحباط، فصبرت في الضيق واقتنت الفرح في الرجاء، إلى أن عبرت بسلام إلى الأبدية لتتعم مع جميع القديسين في حضرة الرب.

❖ المواظبة على الصلاة هي ترياقٌ للنفس، وشفاءٌ لأوجاعها، وهي اتصالٌ أو شركة مع الله لا تنقطع.

١٤. «مشتركين في احتياجات القديسين».

يقول بولس الرسول إلى أهل فيلبِّي: «غير أنكم فعلتم حسناً إذ اشركتم في ضيقتي... فإنكم في تسالونيكي أيضاً أرسلتم إليّ مرةً ومرتين لحاجتي. ليس أُنِي أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم... قد امتلأتُ إذ قَبِلْتُ من أبفروذُّس الأشياء التي من عندكم، نسيمٌ رائحة طيبة، ذبيحة مقبولة مرضية عند الله. فيملاً إلهي كل احتياجاتكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (٤: ١٤-١٩).

هذه صورة رائعة للشركة في احتياجات القديسين، وكيف أُنْهتْ تُعَبَّرُ أمام الله نسيمٌ رائحة طيبة، وذبيحة مقبولة مرضية عند الله. فالصلاة

كيف نتاجر بوزناتنا الروحية؟ - ١٥

والتسبيح ذبيحة مُقدَّمة إلى الله: «فلنُقَدِّم به في كل حين لله ذبيحة التسبيح، أي ثمر شفاه مُعترفة باسمه» (عب ١٣: ١٥)، ثم الاشتراك في احتياجات القديسين يُعْتَبَرُ أمام الله كأنه ذبيحة: «ولكن لا تنسوا فعل الخير والتوزيع، لأنه بذبائح مثل هذه يُسرُّ الله» (عب ١٣: ١٦).

وطالما أنَّ الاشتراك في احتياجات القديسين مُقدِّمٌ من قلب مملوء بحبة لله وللآخرين، فإنَّ «الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب الحبة التي أظهرتموها نحو اسمه، إذ قد خدمتم القديسين وتخدموهم» (عب ٦: ١٠).

١٥. «عاكفين على إضافة الغرباء».

مَنْ هو الإنسان الذي يستطيع أن يُضيف غريباً؟ هو ذلك الذي يحتاجه شعوراً بأنه غريبٌ على الأرض.

كلمة “يَعْكُفُ” أي يُداوم الليل والنهار بلا انقطاع. والضيافة وإكرام الضيف *hospitality*، منها أُخذَت كلمة “hospital” أي “مستشفى” وهي تعني معالجة المريض وضيافة المُتعب والغريب. وقد أُخذَت من قصة “السامري الصالح” (لو ١٠: ٣٠-٣٥): «إنسانٌ كان نازلاً من اورشليم إلى أريحا، فوقع بين لُصوص، فعَرَّوه وجرحَّوه، ومضوا وتركوه بين حيٍّ وميت... ولكن سامرياً مُسافراً جاء إليه، ولما رآه تحنَّن، فتقدَّم وضمَّد جراحاته، وصبَّ عليها زيتاً وخمراً، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق واعتنى به...». فصار هذا الفندق هو أول مستشفى بالمعنى المتعارف عليه حالياً.

فإضافة الغرباء لا تكون فقط على المستوى الجسدي من أكل وشرب واعتناء بالمرضى؛ وإنما هي أيضاً على المستوى النفسي، والمستوى الروحي.

وبولس الرسول يُوصينا قائلاً: «لا تنسوا إضافة الغرباء، لأن بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون» (عب ١٣: ٢)، وهو يُلمح إلى حادثة إضافة إبراهيم للملائكة الثلاثة: «وظهر له (أي لإبراهيم) الرب عند بلوطات ممراً وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار.. فرفع (إبراهيم) عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك، فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم، واتكئوا تحت الشجرة. فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت...» (تك ١٨: ١-٨).

١٦. «باركوا على الذين يضطهدونكم. باركوا ولا تلعنوا».

إنّ مباركة مَنْ يضطهدنا أو يُضايقنا هي التّأمين للحياة الروحية. فإذا استطعت أن تُبارك على الذي يضطهدك، فأنت إنسانٌ تحيّا في ملء الروح. أما إن لم تستطع أن تُبارك على الذي يضطهدك، فسيملاً الحقّ قلبك وتهيمن البغضة على حياتك، وحينئذ ينطفئ روح الله فيك، وتضعف حياتك الروحية، لأن الحقّ مسيطرٌ عليك ولم تتجاوزه بعد.

ولا يمكن لإنسان يُبارك على مَنْ يضطهده أن يلعن إنساناً آخر. والعكس بالعكس لا يمكن لمن يلعن إنساناً أن يُبارك إنساناً آخر؛ لأن البركة مصدرها هو الله، أما اللعنة فمصدرها إبليس الذي هو مصدر "الحقد والعداوة والبغضة".

والقديس يعقوب الرسول يتكلّم عن اللسان قائلاً: «به يُبارك الله

الآب، وبه نلعن الناس الذي قد تَكُونُوا على شِبهِ الله. من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة! لا يصلح يا إخواني أن تكون هذه الأمور هكذا! أَلَعَلَّ يَنْبَغُ أَنْ يَنْبَغُ مِنْ نَفْسٍ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ الْعَذْبَ وَالْمُرَّ؟ هَلْ تَقْدِرُ يَا إِخْوَانِي تِينَةً أَنْ تَصْنَعَ زَيْتُونًا، أَوْ كَرْمَةً تِينًا؟ وَلَا كَذَلِكَ يَنْبَغُ يَصْنَعُ مَاءً مَالِحًا وَعَذْبًا» (يع ٣: ٩-١٢).

فالإنسان إمَّا أَنْ يُبَارَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَلْعَنَ؛ وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُبَارَكَ وَيَلْعَنَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، كَمَا يَقُولُ يَعْقُوبُ الرَّسُولُ. فَإِنْ بَارَكْتَ وَاسْتَطَعْتَ أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي الْبَرَكَةِ مَهْمَا عَانَيْتَ مِنْ اضْطِهَادٍ وَضِيقٍ وَإِهَانَةٍ، فَأَنْتَ ابْنُ اللَّهِ وَابْنُ الْبَرَكَةِ حَسَبَ قَوْلِ الْمَسِيحِ: «لَكِي تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (مت ٥: ٤٥). وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ يَمَلَأُكَ وَيَفِيضُ وَيَنْضَحُ مِنْ فَمِكَ وَقَلْبِكَ عَلَى الْآخَرِينَ مَهْمَا كَانُوا.

وهكذا يقول بولس الرسول: «إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ نَجُوعٌ وَنَعَطُشٌ وَنَعْرَى وَنُلْكَمٌ وَلَيْسَ لَنَا إِقَامَةٌ، وَنَتْعَبُ عَامِلِينَ بِأَيْدِينَا. نُشْتَمُ فُتْبَارِكُ. نُضْطَهَدُ فَنَحْتَمِلُ. يُفْتَرَى عَلَيْنَا فَنَعْظُ» (١ كو ٤: ١١-١٣).

١٧. «فَرِحًا مَعَ الْفَرَحِينَ وَبَكَاءً مَعَ الْبَاكِينَ».

لَا بَدَ لِلْإِنْسَانِ الرُّوحِيِّ أَنْ يُشَارِكَ أَخَاهُ فِي الْفَرَحِ وَفِي الْبَكَاءِ بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ حَالَتِهِ هُوَ الشَّخْصِيَّةِ. فَإِنْ كُنْتَ تَبْكِي عَلَى خَطَايَاكَ، فَأَرْجُوكَ أَنْ تَحْزَنَ الْآنَ حَزَنَكَ وَبَكَاءَكَ، وَافْرَحَ مَعَ أَخِيكَ فِي فَرَحِهِ. وَإِنْ كُنْتَ فَرِحًا بِخِلَاصِكَ وَحَيَاتِكَ الْأَبَدِيَّةِ، فَاحْتَفِظْ بِفَرَحِكَ هَذَا دَاخِلَ قَلْبِكَ، وَشَارِكْ أَخَاكَ الْحَزِينَ فِي حَزْنِهِ، وَالبَاكِي فِي بَكَائِهِ، وَلَكِنْ وَأَنْتَ فِي مِلءِ الرَّجَاءِ.

فَمِنْ أَجْلِ عِزَاءِ إِخْوَتِنَا وَمِشَارَكَتِهِمْ الْأَخَوِيَّةِ فِي أَفْرَاحِهِمْ، نَفْرَحُ مَعَهُمْ

حتى وإن كنّا نحن حزان؛ وكذلك من أجل شركتنا الروحية مع إخوتنا
نحزن ونبكي لبكائهم حتى وإن كنّا نحن فرحين وبملاًنا عزاء الروح
القدس. كل هذا من أجل مشاركة الآخرين. فإن استطعت أن تفعل
ذلك فأنت إنسانٌ روحي، قادرٌ على ضبط نفسك والسيطرة عليها^(٢).

مُلخَصٌ لمنهج القديس بولس الرسول:

يمكنني أن أوجز ما قلته في الآتي: إن هناك منهجاً داخلياً عميقاً قد
وضعه القديس بولس الرسول للمسيرة الروحية لأيّ إنسان يريد أن
يسلك في طريق الحياة الأبدية. فقد بيّن القديس بولس كل خفايا
وأعماق النفس البشرية من الداخل، لكي نستطيع أن نقيس قامتنا
الروحية على كل ما قاله في كل لحظة من حياتنا، ولكي نعود ونختبر كل
فعل وكل قول على ضوء ما قاله بولس الرسول، لنُدرك هل نحن نحيا في
ملء الروح أم في ضعف الجسد؟

فما قاله بولس الرسول هو تأنيبٌ لنا جميعاً، لكي نُراجع أنفسنا في
مسيرتنا الروحية، ونقيس حياتنا على ضوء كلمة الله.

توجيهات وتوسّلات:

أطلب من الله أن يفتح قلبكم لكي تفهموا وتُدرّكوا كل كلمة من
كلمات الرب وكل وصية في الإنجيل، وتسلّكوا في نورها وعلى هديها،
وتقدّموا حياتكم كذبيحة لله في المسيح يسوع.

(٢) لزيادة المنفعة يمكن الرجوع إلى كتاب: "شرح رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية"

للمؤلف، الأصحاح الثاني عشر، الطبعة الثانية ٢٠٠٧، من صفحة ٥١٤-٥٧٦.

السلوك الرهباني - بصفة خاصة - يُلزم الإنسان الذي سلك فيه بالعفة والطهارة نفساً وجسداً، وبالشكر الدائم لله على ما هو فيه وعلى النعمة التي هو فيها مُقيم (رو ٥ : ٢)، لأنه كما يقول مار إسحق: "ليست موهبة بلا زيادة إلاّ التي بلا شكر".

فلا بد للكبير أن يحتمل الصغير، ولا بد للصغير أن يحتمل الكبير. وكما يقول بولس الرسول: «فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رافات، ولطفاً، وتواضعاً، ووداعة، وطول أناة، مُحتملين بعضكم بعضاً، ومُسَامِحِينَ بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال» (كو ٣ : ١٢-١٤).

هذا هو ناموس الرهينة، بل بالحرزي هذا هو ناموس المسيحية، فإذا حفظتم هذه الوصايا وقمتم بتنفيذها، حينئذ يحل روح الله في قلوبكم وفي وسطكم، ويصالح قلوبكم بعضكم على بعض، ويُحقق الوحدة التي نحن جميعاً ننشدها ونتبناها أمام الله، تحقيقاً لصلاة المسيح الشفاعية للآب: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني. وأنا قد أعطيتهم المحبة الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت في ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد» (يو ١٧ : ٢١-٢٣).

أطلب من الله أن يكون بين الجميع احتراماً متبادلاً، وأن "تُقدّموا بعضكم بعضاً في الكرامة"، متوسّلاً إلى الله أن يكون هذا هو ناموسنا الروحي: في الكلام، في العمل، في الخدمة، في كل شيء. لأن كل مَنْ

يتبع هذا الناموس الروحي يحلُّ عليه روح الله وتوازره نعمة الله الغنية.

ولنقرأ بتمعن كلمات القديس بطرس الرسول: «إن تألَّمتم من أجل
البر، فطوباكم. وأما خوفهم فلا تخافوه ولا تضطربوا. بل قدَّسوا الرب الإله
في قلوبكم... بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا لكي تفرحوا في
استعلان مجده أيضاً مُبتهجين. إن عُيِّرْتُم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن
روح المجد والله يحلُّ عليكم» (١ بط ٣: ١٤، ١٥؛ ٤: ١٣، ١٤).

الله صادق في كل مواعيده، وكل هباته ودعوته هي بلا ندامة
(رو ١١: ٢٩). وعلينا أن نسلك كما يحقُّ لإنجيل المسيح (في ١: ٢٧)،
لنكون بحقِّ رسالة المسيح المعروفة والمقروءة من جميع الناس (٢ كو
٣: ٣)، ورائحته الذكية (٢ كو ٢: ١٥) التي يَشْتَمُّها الجميع فيشهدون
أن الله بالحقيقة فيكم.

ولربنا المجد الدائم أبدياً، آمين.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا — تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين، محرم بك — تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق مكتبة الدير

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org